جامعة النَّجاح الوطنيَّة
كليَّة الدّراسات العليا

جهود أبو حيان الأندلسي اللغوية في إظهار المسائل الدعوية من خلال تفسير البحر المحيط

إِعداد
مصطفى عيسى حمدان "سالم عبيد"

إشراف
أ. د. وائل ابو صالح

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها،
من كلية الدراسات العليا، في جامعة النجاح الوطنية، نابلس – فلسطين.

2024

جهود أبو حيان الأندلسي اللغوية في إظهار المسائل الدعوية من خلال تفسير البحر المحيط

إِعداد

مصطفى عيسى حمدان "سالم عبيد"

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2024/08/29، وأجيزت:

أ. د. وائل ابو صالح	التوقيع
المشرف الرئيسي	
أ. د. عبد الرؤوف خريوش	التوقيع
الممتحن الخارجي	
د. منتصر الاسمر	التوقيع
الممتحن الداخلي	

الإهداء

﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس:10]

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً على البدء والختام

والحمد لله على هذا الإنجاز والحمد الله من البدء إلى الختام.

إلى والدي وقدوتي في كل خطوه اخطوها

إلى أمي الغالية التي لم تتركني يوماً

إلى أخواتي السند الدائم في مسيرتي التعليمية

أهديكم جميعاً بحثي وثمرة جهدي

والله ولي التوفيق.

الشكر والتقدير

الحمد لله الّذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله الّذي لا تطيب اللحظات إلا بحمده وشكره، الحمد لله على نعمة النجاح.

أتقدم بخالص الحب والشكر والتقدير، لمشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور وائل أبو صالح، الّذي وجدت منه أفضل الإرشادات، والتوجيهات، ورحابة صدر منذ اللحظات الأولى، لإعداد الأطروحة فبارك الله فيه وله، وجزاه الله عني كل خير.

وأتقدم بخالص الشكر والتقدير، لأعضاء لجنة المناقشة: الأستاذ الدكتور وائل أبو صالح رئيساً ومشرفاً، والأستاذ الدكتور عبد الرؤوف خريوش ممتحناً خارجياً، والدكتور منتصر اسمر ممتحناً داخلياً على جهودهم المباركة في قراءة هذا البحث وتقديم ملاحظاتهم القيمة.

ولا أنسى في هذا المقام إلا أن أتقدم بخالص الشكر، والتقدير من الأستاذ الدكتور المرحوم يحيى جبر رحمه الله، وجعل مأواه الجنة، وأتقدم بالشكر والتقدير من ابن عمي الاستاذ مدحت سالم بارك الله فيكم جميعًا.

والشكر والتقدير لكل من ساعدني في إعداد هذا البحث، فبارك الله فيكم.

وختاماً. اسأل الله أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل عنوان:

جهود أبو حيان الأندلسي اللغوية في إظهار المسائل الدعوية من خلال تفسير البحر المحيط

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: مصطفى عيسى "سالم عبيد"

التوقيع: مصطفى عبيد

التاريخ: ٢٩/٨/٢٠٢٤م

فهرس المحتويات

الإهداء .....ب

الشكر والتقدير.....د

الإقرار .....ه

فهرس المحتويات.....و

الملخص..... ح

المقدمة 1

منهج الدراسة..... 5

مصطلحات الدراسة 5

سبب اختيار الدراسة..... 5

أهداف الدراسة 6

أهمية الدراسة 6

مشكلة الدراسة..... 6

حدود الدراسة 7

التمهيد..... 8

الفصل الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام 17

المبحث الأول: منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم 17

المبحث الثاني: منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السنة النبوية الشريفة.....26

المبحث الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال تفسير البحر المحيط 34

الفصل الثاني: صفات الداعية في الإسلام.....49

المبحث الأول: صفات الداعي في القرآن الكريم 50

المبحث الثاني: صفات الداعية في السنة النبوية الشريفة:.....57

المبحث الثالث: صفات الداعية في تفسير البحر المحيط 65
الفصل الثالث: فقه الدعوة في تفسير البحر المحيط..... 75
المبحث الأول: الحكمة في تفسير البحر المحيط..... 75
المبحث الثاني: الموعظة في تفسير البحر المحيط..... 84
المبحث الثالث: البصيرة في تفسير البحر المحيط 92
الفصل الرابع: أصناف المدعوّين من خلال تفسير البحر المحيط..... 103
المبحث الأول: المدعوون من غير المسلمين 104
المطلب الأول: المدعو من الكفار الأصليين 105
المطلب الثاني: المدعو من الكفار المرتدين 111
المطلب الثالث: المدعوون من أهل الكتاب: 115
المبحث الثاني: المدعوون من المسلمين 119
المطلب الأول: المدعوون من الملأ 119
المطلب الثاني: المدعوون من جمهور الناس 125
المطلب الثالث: المدعوون من المنافقين 127
المطلب الرابع: المدعوون من العصاة 132
الخاتمة..... 137
المراجع العلمية 140
Abstract ..... b

جهود أبو حيان الأندلسي اللغوية في إظهار المسائل الدعوية
من خلال تفسير البحر المحيط

إعداد

مصطفى عيسى حمدان "سالم عبيد"

إشراف

أ. د. وائل ابو صالح

الملخص

تهدفُ هذه الدراسة الموسومة بـ (جهود أبي حيان الأندلسي اللغوية في إظهار المسائل الدعوية من خلال تفسير البحر المحيط) إلى إظهار المنهج اللغوي المتبع في تفسير آي القرآن وخاصة عند أبي حيان، وإظهار منزلة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في كتب التفسير اللغوي، ومحاولة المساهمة من خلال الوقوف على أهم باب من أبواب الدين المتعلق بالدعوة إلى الله، حيث أهتم القرآن الكريم بها في غير آيةٍ من حيث ذكر الأحكام والضوابط، والصفات المتعلقة بالداعية، والمسالك الدعوية، وأصناف المدعووين من ناحيةٍ تفسيرية لغوية، وقد تمت هذه الدراسة من خلال المنهج الوصفي التفسيري في تفسير الآيات القرآنية، ومناقشتها، واستخراج الأحكام منها.

وجاءت نتائج هذه الدراسة كما يلي: اعتمد أبو حيان على المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم، إذ إنّه كان يقوم على توضيح معاني القرآن الكريم وفق رؤية نحوية لغوية. وأهتم أبو حيان في غير بابٍ بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجعل أبو حيان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن علم المعروف والمنكر، وبين أثر الأخذ به، وأثر تركه.

الكلمات المفتاحية: جهود أبي حيان الأندلسي، التفسير اللغوي، المسائل الدعوية.

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وبعد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:70-71]، وبعد:

فإنَّ علم التفسير من أجل العلوم في الشريعة الإسلامية، وأفضلها على الإطلاق، وخاصة أنَّ هذا العلم يتعلق بكلام الله عز وجل؛ الذي هو أحسن الكلام، الذي ليس بعده ولا قبله في الحُسن والأفضلية شيء، لذلك كان صلّى الله عليه وسلم يقول: "إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله ..." (البخاري، 1993، ح:5747). فعلم التفسير من أحسن العلوم من جهة المذاكرة، والفهم، والمدارسة، وتحصيل الفوائد والمنافع في الدّارين.

اهتمَّ العلماء قديما بهذا العلم – علم التفسير –، وتعاقبوا على تفسير كتاب الله عز وجل، واستخراج ما فيه من العلوم والفوائد، والمنافع الدينية، والدنيوية، وجعلوا أوّل شيء يطالعونه من العلوم الشرعّية، هو كتاب الله عز وجل، وإن اختلفت المناهج، والطرائق التي سلكوها في تفسير كتاب الله عز وجل.

فمنهم مَنْ سَلَكَ منهج التفسير بالمأثور كما فعل إمام المفسرين ابن جرير الطبري في كتابه " جامع البيان عن تأويل آي القرآن " (الطبري، 1994)[1] ، ومنهم من سلك منهج استخراج الأحكام، كما فعل أبو عبد الله القرطبي، في كتابه " الجامع لأحكام القرآن" (القرطبي، 1964)[2] ، ومنهم من سلك منهج التفسير

[1] يعتبر من أجل التفاسير واعظمها شأنًا تميز بجمع المأثور عن الصحابة وتعرضه للأقوال والترجيح بينهما والاجتهاد في حل المسائل.

[2] يشغل الاهتمام الفقهي جزءًا كبيرًا في تفسيره، فتحدث فيه عن الأحكام الفقهية، ثم تحدث عن الأدلة المتعارضة وتوجيهها، بهدف استخراج الاحكام الفقهية من الكتاب.

بالرأي كما فعل الفخر الرازي في كتابه "مفاتيح الغيب"، أو "التفسير الكبير" (الرازي، 1981)[1]، ومـــنهم من سلك باب التفسير اللغوي واستخراج المسائل النحوية والبلاغية، ووجوه الإعراب والقـــراءات كمـــا فعل أبو حيان الأندلسي في كتابه " تفسير البحر المحيط"، (الأندلسي، 2010) والزمخشري فـــي كتابـــه "الكشاف" (الزمخشري، 2009)[2]. إلى غير ذلك، ومنهم من سلك التفسير الإشاري في تفسير كتابـــة الله مثل الألوسي في كتابة "روح المعاني"[3].

ويعد "تفسير البحر المحيط" من التفاسير المهمة جداً في باب تفسير كتاب الله عز وجل من جهة اللغـــة، ومعرفة أوجه التفاسير في النحو والإعراب، وهذا يرجع لما للّغة وفهمها من أهمية كبيرة في باب تفسير كتاب الله عز وجل في جميع أبواب الدين، ومن هنا سيتناول هذا البحث المسائل و التفاسير اللغوية التي تعرض لها أبو حيان في تفسيره.

ويتكون هذا البحث من تمهيد، وأربعةِ فصولٍ، وخاتمة.

ففي التمهيد: توقف الباحث عند التعريف بمفردات عنوان البحث وما لهُ علاقة بـــالعنوان مـــن الناحيـــةِ اللغوية والاصطلاحية.

جاء الفصل الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: من ثلاثة مباحث، حيث وضحتُ فيه وجـــوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر فـــي القـــرآن الكريم، معتمداً بذلك على إيضاح ما جاء من آثار السلف الصالحين، وبيان ما جاء فيها من احكام فقهية تفصيلية، وجعلت المبحث الثاني في منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر فـــي الســـنة النبويـــة الشريفة. حيث وضحتُ فيه أثر وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثر ترك هذه المنزلة، ثُمَّ إفراد القول في مراتب إنكار المنكر. وجاء المبحث الثالث: في بيان منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن

[1] يتحدث فيه الكاتب عن مناسبة، والآيات، والمسائل الصوتية والنحوية والبلاغية.

[2] من كتب التفسير التي تظهر الفوائد اللغوية والبلاغية في القرآن الكريم، ودور علم اللغة في تفسير القرآن الكريم.

[3] من كتب التفسير التي بذل الألوسي فيه مجهوده جامعاً فيه لآراء أهل السلف رواية، ودراية، مشتملاً فيه على أقوالهم بكل عناية، ودراية.

المنكر من خلال تفسير البحر المحيط، معتمداً بذلك على إظهار ترجيحات أبي حيان وبيان من أيدهُ الرأي ومن خالفه ثم إظهار القول في تلك الآيات من الناحيةِ اللغوية، وفيه نسقٌ منظمٌ لبيان عظم تلك المنزلة.

والفصل الثاني: صفات الدّاعية في الإسلام: من ثلاثة مباحث وهو مخصّصٌ لدراسة صفات الداعية في القرآن الكريم، وركز الباحث فيه على إظهار صفات الداعية في القرآن الكريم، محاولاً الكشف عن هذه الصفات، مركزاً على الجوانب الإيمانية والعلمية للداعية، وذلك من خلال النواحي التفسيرية واللغوية، وركز المبحث الثاني على صفات الداعية السنة النبوية الشريفة حيث قمت في نهاية المباحث بإظهار أهمية السنة النبوية الشريفة في تحقيق الدعوة إلى الله، وكيف يستفيدُ الداعية من سيرة النبي في طريق دعوته، ثم بيان ما يستفاد من هذه الأحاديث، وجاء المبحث الثالث في صفات الداعية في تفسير البحر المحيط وذلك بإظهار ترجيحات أبي حيان ومدى أهمية هذه الصفات عنده، وركزتُ فيه على الجوانب العلمية والإيمانية وتركتُ فقه الدعوة للفصل التالي وذلك لأهمية هذا المبحث.

والفصل الثالث: فقه الدعوة وأركانها من خلال تفسير البحر المحيط: وهو مخصّصٌ لدراسة الحكمة: وهي إتقان العلم والعمل بالدعوة إلى الله. والموعظة: التذكير بالخير، والترغيب والترهيب بالدعوة إلى الله. والبصير: العلم والمعرفة والحجة والبرهان الّتي يُرى بها حقائق الأشياء في باب الدعوة إلى الله.

واعتمدتُ في هذا الفصل إلى بيان معنى (الحكمة، والموعظة، والبصيرة) عند أبي حيان، ثُمَّ توضيح البيان القرآني الّذي يبينُ مطلب الله بالدعوة إليه من خلال هذه المسالك، ثُمَّ وضحت من خلال المبحث الأول: الدعائم الّتي تقوم عليها الحكمة، وخرجت بعد ذلك بالآفات وهي المعيقات الّتي تهدم هذه الدعائم. وفي المبحث الثاني: الموعظة في تفسير البحر المحيط: وقفتُ من خلالهِ ببيان وسائل الموعظة حسبما وردت عند أبي حيان، وآثار الموعظة بالدعوة إلى الله على الواعظ والموعوظ. وفي المبحث الثالث: البصيرة في تفسير البحر المحيط: وقفتُ من خلال هذا المبحث على البصيرة بما يدعو إليه، والأصول

التي يدعو إليها الداعية. وأنهيت الحديث في هذا المبحث: قواعد الدعوة إلى الله كما جاءت في تفسير البحر المحيط. وفي هذا الفصل نسقٌ يعتمدُ على تفسير أبي حيان لمفردات الحكمة، والموعظة، والبصيرة، واعتمادهُ على تفسير بعض الآيات وفق رؤية نحوية ولغوية.

والفصل الرابع: أصناف المدعووين من خلال تفسير البحر المحيط: وهو مخصّصٌ لدراسة المدعووين من المسلمين وغير المسلمين، تحدث أبو حيان في هذا الفصل عن أصناف المدعووين إلى الله، وبيان كيفية دعوتهم، وصنف أبو حيان هذا الفصل إلى مبحثين.

المبحث الأول: بالمدعوّين من غير المسلمين وهم على ثلاثة أصناف الصنف الأول: الكفار الأصليين وهم قسمين: القسم الأول: الملحدون وهم المنكرون لوجود الله، وبيّن أبو حيان أنَّ على الداعية استخدام الأدلة الفطرية، والخلقية للاستدلال على وجود الله، والقسم الآخر الكفار المشركين: وهم الّذين يشركون مع الله آلهة أخرى في العبادة وبين أنَّ على الداعية استخدام أسلوب الداء والدواء في دعوتهم إلى الله، والصنف الثاني: الكفار المرتدين وهم المرتدون إلى الكفر بعد الإيمان، وبيّن أبو حيان أنَّ هذا الصنف لا تختلف دعوتهم عن دعوة الكفار الأصليين. والصنف الثالث: أهل الكتاب وهم فئتان (اليهود والنصارى)، وجعل أبو حيان دعوتهم قائمة من خلال بيان بعض المعتقدات الخاطئة لديهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، واستخدام الأدلة والحجج في دعوتهم.

أما المبحث الثاني: بالمدعوّين من المسلمين وهم على أربعة أصناف الصنف الأول: الملأ وهم سادات القوم وبيّن أبو حيان أنَّ دعوتهم قائمة من خلال إزالة الشبهات، والصنف الثاني: جمهور الناس وهم عامة الناس وبيّن أبو حيان أنَّ دعوتهم قائمة على وقف تأثرهم بالملأ، والصنف الثالث: في المنافقين وهم الّذين يسترون الكفر ويظهرون الإيمان، وبين أنّ دعوتهم قائمة من خلال إزالة علامات النفاق من قلوبهم، والصنف الرابع: العصاة وهم الّذين لا يقومون بحق الشهادة، وبيّن أبو حيان أنَّ دعوتهم قائمة من خلال استخدام الداعية الموعظة الحسنة، وضرب الأمثال. إما الخاتمة: ففيها يظهرُ الباحثُ نتائج ما تم التوصل إليه في هذه الدراسة.

وبنيت هذه الدراسة على:

منهج الدراسة

فالبحث يعتمدُ المنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية، ثُمَّ المنهج الوصفي التفسيري في تفسيرها ومناقشتها، واستخراج الأهداف منها.

مصطلحات الدراسة

الدعوة: "هو العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق".

الأمر بالمعروف: "هو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات".

النهي عن المنكر: "المنكر ضد المعروف، هو كل ما قبَّحه الشرع وحرَّمه وكرهه فهو منكر ".

سبب اختيار الدراسة

هناك كثير من الأسباب التي دعت للكتابة في هذا الموضوع، من أبرز هذه الأسباب:

1. عدم وجود أبحاث علمية تحدّثت بشكل مفصّلٍ، وبصورة خاصة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الأبواب المتعلّقة بالدعوة إلى الله تعالى من خلال تفسير البحر المحيط.
2. قلة البحوث العلمية المتخصصة في اظهار المسائل الدّعوية من خلال كتب التفسير اللغوي.
3. إثراء المكتبة الإسلامية بالبحوث العلمية الموصوفة بالجِدَّة والأصالة في مادتها العلمية.

أهداف الدراسة

هناك كثير من الأهداف التي يسعى البحثُ إلى تحقيقها من خلال دراسة هذا الموضـــوع، أجملهـــا فـــي النقاط الآتية:

1. إبراز الأحكام العلمية الشرعية المتعلقة بالدعوية إلى الله تعالى من خلالها تفسير البحـــر المحـــيط لأبي حيان الأندلسي.
2. إظهار المناهج اللغوية في تفسير آي القرآن في كتب التفسير التي اهتمّت بهذا الشأن، وخاصة عند أبي حيان الأندلسي.
3. إظهار منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتب التفسير اللغوي.

أهمية الدراسة

تبرز أهمية البحث من خلال الوقوف على أهم بابٍ من أبواب الدين المتعلّق بالدَّعوةِ إلـــى الله تعـــالى، وهو: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، أو ما يُعبّر عنه علماءُ السياسة الشرعية بـــــــ "الحسِـــبة"، حيث اهتمَّ القرآن الكريم بهذا الباب في غيرِ آية حيث يذكر الأحكام، والضوابط، والحـــدود، والصِّـــفات المتعلِّقة بكل من الدَّعوة نفسها، وكذلك الدَّاعية إلى الله تعالى، وأصناف الدعاة و المدعوين؛ لذلك جاءت أهمية الكتابة في هذا البحث؛ لكونه يُناقش بابٍ من أهم الأبواب الشرعية في الإسلام من خلال تفســـير البحر المحيط للحافظ أبي حيان الأندلسي رحمه الله، وذلك بالسِّياق والمنهج اللغوي .

مشكلة الدراسة

1. ما هي الوسائل والأساليب التي اعتمدها اللغويون في تفسير القرآن الكريم، وخاصة عند أبي حيان؟
2. كيف أظهرت كتب التفسير منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لغويا، وخاصة عنـــد أبـــي حيان؟
3. كيف ظهرت الأحكام المتعلقة بالدعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم عند اللغـــويين مـــن خـــلال تفسيراتهم اللغوية؟

حدود الدراسة

حدود الموضوع: جهود أبي حيان الأندلسي اللغوية البيانية في إظهار المسائل الدعوية في تفسير البحر المحيط.

حدود الزمان: عام دراسي (العام الدراسي 2023–2024).

حدود المكان: تفسير البحر المحيط لابي حيان الأندلسي.

أسأل الله تعالى ان يتقبل مني هذا العمل، بفضله ومنّه، وأن يثقل به ميزان كل من بحث وعمل به وأشرف عليه وناقشهُ.

التمهيد

وفيه سوف نتوقف عند التعريف بمفردات عنوان البحث، وما له علاقة بالعنوان.

أبو حيان الأندلسي

"هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي الأندلسي الجياني الغرناطي المغربي المالكي ثم الشافعي "، يُكنّى بأبي حيان، ولد في غرناطة سنة (654هـ)، نشأ في بيئة علمية ساعدته على نضوج عقله، وترعرع، وأخذ علمه عن أحمد بن الحسين الثقفي، والحسين بن أبي الأحوص القرشي، وغيرهما من العلماء، فقد ذكر السيوطي في البغية إنه أخذ علمه عن نحو أربعمائة وخمسين شيخاً. (السيوطي، 2009، صفحة 280/1).

علم التفسير

التفسير لغة: " الفَسرُ: البيان. فسر الشيء يفسِرهُ بالكسر، ويفسُره بالضم، فسرًا أو فسرهُ: أبانه". (ابن منظور، 2010، صفحة 55/5) وقال ابن فارس الفاء والسين والراء، مفردة واحدة تشير إلى بيان وإيضاح الشيء. (فارس، 1979، صفحة 504/4).

وفي الاصطلاح: هو العلم الذي يبحث في كيفية نطق ألفاظ القرآن من حيث معانيها ودلالاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية. (الأندلسي، 2010، صفحة 26/1).

وقولنا (علم) فهو اسم جنس يشمل جميع العلوم، حيث يبحث في كيفية نطق ألفاظ القرآن، ومعانيه مفرداته، وما يحمله من دلالة، كأن تكون دلالة ظنية أو قطعية، أو دلالة ظاهرة أو باطنة

التفسير اللغوي

هو " بيان معاني القرآن بما ورد في لُغةِ العرب ". (الطيار، 2002، صفحة 38).

والمراد به العلم الذي يبحث في القرآن الكريم، من حيث الفاظهما واساليبهما، والوقوف على مفرداتهما من الناحية اللغوية. (الطيار، 2002، الصفحات 38-39).

تفسير البحر المحيط

قدم أبو حيان تفسيره وفق أُسُس من اللّغةِ والنحو؛ لذلك كان هذا التفسير قوياً في بابه وبنيانه، فقد بنى أبو حيان تفسيره على معرفة أوجه التفاسير في النحو والأعراب. والمعروف أنَّ علم اللغة يقوم على توضيح معاني المفردات والتراكيب وإعراب الكلمات، وهو ما يحتاج إليه المفسر في تفسير القرآن الكريم؛ ويعود ذلك إلى أنَّ القرآن نزل بلسان عربي مبين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:191-195]. وعليه يُعد علم اللغة من أهم العلوم التي يحتاج إليها المفسر في تقعيد تفسيره.

سار أبو حيان في تفسيره وفق منهج معين حيث كان يبدأ الكلام على مفردات الآيات، ثم على أسباب النزول، ثم الناسخ والمنسوخ، ثم تناسب الآيات، ثم ذكر القراءات وتوجيهها، وذلك وفق قواعد النحو والإعراب ومعاني المفردات.

تعريف (الجهود) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف الجهود لغةً

جهود: جمع تكسير، ومفردها (جُهدَ: وهو الطاقة، وقيل: جَهدَ: المشقة)، الجَهدُ: ما جهد به الإنسان من أمر شاق، فهو مجهود، وقيل الجُهدَ لغة بنفس المعنى (ابن منظور، 2010، صفحة 133/3). وهو

كذلك في القاموس المحيط: (الجَهدَ: المشقة، وبضم الطاقة). وقال: اجَهدَ جَهدَكَ: أبلغ غايتك، (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 275). واضاف إليه المناوي في التوقيف " بذل المجهود في طلب المقصود"، (المناوي، 1990، صفحة 38). قال تعالى ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾[الأنعام:109]. أي أقسموا بالله واجتهدوا أن يأتوا أقصى ما في وسعهم، وذكر ابن فارس أن الجيم والهاء والدال (جهد): أصل المشقة، والجُهد: الطاقة، حيث يقال: جهدت نفسي واجتهدت، ويقارب باب الجَهادُ: الأرض الصُّلبة. (فارس، 1979، صفحة 486/1).

تعريف الجهود اصطلاحاً

الاجتهاد: "أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة". (الاصفهاني، 2009، صفحة 131/1).

الاجتهاد: افتعال من جهد، وقد عرفه علماء الأصول المتقدمون " استفراغ الفقيه الوُسْع ليَحْصُلَ لهُ ظنّ بحُكم شرعي" (الجرجاني، 2011، صفحة 12).

وقولهم: (استفراغ الفقيه الوسع) أي جعل الاجتهاد مقتصراً على الفقيه فقط في الأمور الشرعية، وأن اجتهاد غير الفقيه في هذا الباب لا يعتبر اجتهادًا، وقولهم (لتحصيل الظن) أي الابتعاد عن الأحكام القطعية، (والحكم) أي الأحكام الشرعية. والمراد بذل الفقيه الوسع والطاقة الكاملة في الأمور الشرعية؛ للوصول إلى المعرفة الظنية، لاستنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية.

وخرج الجرجاني بتعريف آخر للاجتهاد وهو: "بذل المجهود في طلب المقصود من جهة الاستدلال" (الجرجاني، 2011، صفحة 12). فقد جعل الجرجاني الاجتهاد مجهوداً عقلياً بالبحث في الادلة الاستدلالية، مما جعل الاجتهاد مجهوداً بشرياً قد يصيب وقد يخطئ.

تعريف (الإظهار) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف الإظهار لغةً

الأصل في الإظهار من حيث اللغة (الكشف والبيان والبروز)، وهو ضد الباطن والمستور، كما ذكره غير واحدٍ من اللغويين، يقول ابن فارس:" الظّاء والهاء والرَاء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدل على قوّة وبروز، من ذلك ظهر الشيء يظهر ظهوراً فهو ظاهرٌ، إذا انكشف وبرز. ولذلك سمي وقت الظهر والظهيرة، وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها. والأصل فيه كله ظَهرُ الإنسان وهو خلاف بطنه، وهو يجمع البروز والقوة. يقال للركاب: الظَهر: لأن الذي يحمل منها الشيء ظهورها. ويقال: رجل مُظهرٌ، أي شديد الظهر. ورجل ظهرٌ: يشتكي ظهرهٌ" (فارس، 1979، صفحة 471/3).

تعريف الإظهار اصطلاحاً

أما الإظهار في الاصطلاح، ومنه الظهور، والإظهار، والظَّهر، يقول البركتي:" هو اسم لكلام ظهر المراد منه بصيغته ويكون محتملاً للتخصيص والتأويل، وضده الخفي، وظاهر الأمر: باديه" (البركتي، 2003، صفحة 139).

تعريف (المسائل) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف المسائل لغةً

مسائل: مفردها مسألة، وجذرها سأل ومنها يسأل سؤالًا وسآلة، وسألة، قال ابن منظور: وأسالته سولته مسألته أي قضيت حاجته (ابن منظور، 2010، صفحة 318/11). وهو كذلك في القاموس المحيط: قضى حاجته (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 1012). والأمر منها سل، ويقال سال يسال: كخاف يخاف.

سأل: قال ابن فارس إنَّ (السين والهمزة واللام) (سأل) كلمة واحدة، ومنها يسأل ومسألة وسؤالًا، ورجل سؤلةٌ: كثير السؤال (فارس، 1979، صفحة 124/3).

المسألة: هي القضية أو الحاجة التي يبحث فيها، فقد ورد في حديث الرسول: " أعظم المسلمين في المسلمي جُرماً من سأل أمراً لم يُحرّم فحّرم على الناس من أجل مَسْأَلته ": فقد أراد بمسألته قضيته أو حاجته (ابن منظور، 2010، صفحة 319/11).

يقول ابن منظور نقلاً عن ابن الأثير: إنَّ المسائل في القرآن الكريم نوعان: أحدهما مباح وهو ما كان على وجه التبيين والايضاح، والآخر مكروه. (ابن منظور، 2010، صفحة 319).

تعريف المسائل اصطلاحاً

عرف الجرجاني المسائل: "المطالب التي يبرهن عليها في العلم، ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها" (الجرجاني، 2011، صفحة 177).

والمراد بالمصطلح في هذا البحث المسائل الدعوية، المتعلّقة بالدّعوة إلى الله سبحانه وتعالى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حيث البحث فيها وإيجادها.

تعريف (الدعوة) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف الدعوة لغةً

ذكر أهل اللغة أن الدعوة في أَصلها اللغوي تعني الإمالة إليك بصوت وكلام، كما ذكر ذلك ابن فارس، حيث قال: "الدَال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك. تقول دعوت أدعو دعاء والدَّعوة إلى الطعام بالفتح، والدِّعوة في النسب بالكسر (فارس، 1979، صفحة 297/2).

تعريف الدعوة اصطلاحاً

اختلفت عبارات العلماء في تحديد مفهوم الدعوة وتعريفها، وإن كانتا جميعها تلتقي من حيث المعنى في باب واحدٍ، وأقرب هذه المعاني والتعريفات فيما يتعلق بموضوع البحث هنا، هو العلم الذي به تعـــرف كافة المحاولات الفنيَّة المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة، وشريعة، واخـــلاق (القحطاني، صفحة 14).

تعريف (المعروف) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف المعروف لغةً

المعروف: الأصل بالمعروف هو ما عرفه الشرع أو العقل حسنه، وقد عرفه ابن منظور: العلـــم (ابـــن منظور، 2010، صفحة 236/9). وفي القاموس المحيط "عرفه يعرفه معرفة وعِرفانا، بالكسر، عرفانا بكسرتين مشدودة الفاء: علمه" (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 835). قال ابن فارس "العـــين والـــراء والفاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلاً بعضه، والأخر على السكون والطمأنينة" (فارس، 1979، صفحة 281).

تعريف المعروف اصطلاحاً

أجمع عدد من العلماء على أنَّ الأمر بالمعروف هو: "اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقـــرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات" (ابن الأثيـــر، 1963، صفحة 216). واضاف غيرهم: ما وافق العقل، وكرم الطبع.

تعريف (المنكر) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف المنكر لغةً

المنكر: والأصل بالمنكر هو ما أنكره ونهى عنه الشرع، وعرفه ابن منظور: المنكر من الأمر: خلاف المعروف وهو كل ما حرّمه وكرهه وقبحه الشرع (ابن منظور، 2010، صفحة 233/5). وهو كـذلك في القاموس المحيط: المنكر ضد المعروف (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 487). قال ابن فارس فـي معجم مقاييس اللغة أنَّ (النون والكاف والرّاء) أصل صحيح يدَّل على خلاف المعرفة (فـارس، 1979، صفحة 476).

تعريف المنكر اصطلاحاً

"المنكر ضد المعروف، وهو كل ما قبَّحه الشرع وحرَّمه وكرهه فهو منكر" (ابن الأثير، 1963، صفحة 115/5).

قال القاري " ثم العلماء إنَّما ينكرون ما أجمع عليه الأئمة وأما المختلف به فلا إنكار فيه؛ لأنه على أحد المذهبين ولكل مجتهد نصيب" (البركتي، 2003، صفحة 219).

تعريف (الحكمة) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف الحكمة لغةً

الأصل بالحكمة: العلم والمعرفة بالأشياء، قال ابن منظور: معرفة أفضل الأشياء في أفضل العلوم (ابن منظور، 2010، صفحة 140/12). وفي القاموس المحيط: "العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقـرآن" (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 1095).

وعرف ابن فارس الحكمة: (الحاء والكاف والميم) أصل واحد، وهو المنع. ومنها الحُكم وهو منع الظلم. وسميت الحِكمة: لأنها تمنع الجهل (فارس، 1979، صفحة 91/2).

تعريف الحكمة اصطلاحًا

تعرف الحكمة على: إنَّها إتقان الفعل والقول واحكامهما (البركتي، 2003، صفحة 81) وقال النـــووي: هي العلم بالأحكام الشرعية، التي تشتمل على معرفة الله سبحانه وتعالى، والمصحوبة بنفـــاذ البصـــيرة، وتهذيب النفس، وإظهار الحق، والابتعاد عن اتباع الهوى (النووي، 1994، الصفحات 32-33).

تعريف (الموعظة) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف الموعظة لغةً

قال ابن منظور: الموعظة من وعظ وهي: النصح والتذكير بالعواقب (ابن منظـــور، 2010، صـــفحة 466/7). وفي القاموس المحيط: ذكره بالثواب والعقاب، بما يلين قلبه (الفيروزآبادي، 2005، صـــفحة 699).

وعرفها ابن فارس: (الواو والعين والظاء)، أصل واحد، قال الخليل: والاسم منه هو "التذكير بالخير وما يرق له قلبه" (فارس، 1979، صفحة 126/6).

تعريف الموعظة اصطلاحاً

"تليين القلوب القاسية وتدميع العيون الجامدة وإصلاح الأعمال الفاسدة" (البركتي، 2003، صفحة 221؛ المناوي، 1990، صفحة 319).

تعريف (البصيرة) في اللغة وفي الاصطلاح

تعريف البصيرة لغةً

قال ابن منظور: هي الحجة والدليل في الشيء (ابن منظور، 2010، صفحة 65/4). وفـــي القـــاموس المحيط: عقيدة القلب والفطنة (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 351).

قال ابن فارس: (الباء والصاد والراء)، اصلان أحدهما يدل على العلم بالشيء، ومنها البصيرة وهي البرهان، والآخر بصر بالشيء غلَظُه ومنه البصر: والأصل الأول أقرب (فارس، 1979، صفحة 254/1).

تعريف البصيرة اصطلاحاً

تقال البصيرة لقوة القلب المدركة. وقيل: "قوة القلب المنوّرة بنور القدس، يرى بها حقائق الاشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها، وهي التي سماها الحكماء العاقلة النظرية والقوة القدسية (الجرجاني، 2011، صفحة 42؛ المناوي، 1990، صفحة 79).

الفصل الأول

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام

المبحث الأول: منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل جليل من أصول الدين القيم، به قوام الأمر وصلاح ملاكه؛ حيث أنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله؛ لإخبار الناس كمال هذا الدين من غير تحريف، وبيان الأوامر والنواهي والمباح والمكروه، ويُعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفردين الكاملين للإسلام، فقد قام الدين القيم على الأمر بالمعروف، ولا سيما أنَّ الدين كله معروف يجب إتباعه، فإذا خالف الناس المعروف، أتوا بالمنكر الذي ينبغي النهي عنه (تيمية أ.، 1976، صفحة 9).

إنَّ صلاح العباد في الدنيا والآخرة متوقف على طاعة الله تعالى، وطاعة رُسُله –صلوات الله عليهم– وتمام صلاح العباد متوقف على الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منزلة عظيمة، وشأن عظيم، ففيه حَثٌّ على طلب العلم، وتحقيق صلاح المجتمع وسبيل النجاة من الهلاك وتحقيق الولاية بين المسلمين؛ لذلك أهتم الله تعالى بهذا الأصل في كتابهِ الحكيم. وجعل ترك هذا الأصل من أعظم الذنوب وسببًا في حلول العقاب على الفرد والمجتمع.

إنَّ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم أبواب هذا الدين، حيث أمر الله به في عدة مواضع في كتابه الحكيم؛ وذلك لعظم هذه المنزلة، فقد أولى الله تعالى لهذا الأصل آيات تُظهر عظم هذه المنزلة.

أولًا: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:104].

يقول أبو حيان: "والظاهر أنَّ قوله منكم يدل على التبعيض، وقاله: الضحاك والطبري. لأنَّ الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يصلح إلا لمن علم المعروف والمنكر، وكيف يرتب الأمر في إقامته، وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما أمر بمنكر، ونهى عن معروف، وربما عرف حكما في مذهبه مخالفا لمذهب غيره، فينهى عن غير منكر ويأمر بغير معروف، وقد يغلظ في مواضع اللين وبالعكس. فعلى هذا تكون (من) للتبعيض، ويكون متعلق الأمر ببعض الأمة، وهم الذين يصلحون لذلك. وذهب الزجاج إلى أن (من) لبيان الجنس، وأتى على زعمه بنظائر من القرآن الكريم وكلام العرب، ويكون متعلق الأمر جميع الأمة يكونون يدعون جميع العالم إلى الخير، والكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة" (الأندلسي، 2010، صفحة 289/3).

ودلَّ حرف (من) في قوله تعالى: (مِّنكُمْ) عند بعض أهل العلم على أنَّه للتبعيض، أي المقصود من الآية أنَّ الذي يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنَّما هم العلماء دون غيرهم من الناس، لكن قال بعض أهل العلم إنَّ (من) هي لبيان الجنس، يعني ذلك أنَّ جميع الناس، مأمورون بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. ورجح أبو حيان التبعيض؛ لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاجان إلى علمٍ بالمعروف وعلمٍ بالمنكر.

ويقول الشَّوكاني: "قوله يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من باب عطف الخاص على العام، إظهاراً لشرفهما، وأنَّهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه، كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة: أي يدعون، يأمرون، ينهون: لقصد التعميم، أي كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك، والإشارة في قوله: وأولئك ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها هم المفلحون أي: المختصون بالفلاح، وتعريف المفلحين: للعهد، أو: للحقيقة التي يعرفها كل أحد" (الشوكاني، 2007، صفحة 236).

وذكر الشوكاني أن عطف الآية جاء من باب عطف الخاص على العام، والدلالة اللغوية عنده هي بيـــان الشَرف، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما الوجهان الكاملان من جهة الخير، ثم ذكر الشـــوكاني أن حذف متعلق الأفعال الثلاثة في الآية. إنَّما المقصود منه التعميم؛ أي كل من وقع منه سبب يقتضـــي ذلك.

واتفق علماء اللغة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنَّ الاختلاف القائم يَنصُّ على من يقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهل هو فرض عيني أو كفائي؟ مستدلين بذلك على ما ذكـــر من أقوال في الكتاب والسنة.

وفي مستهل الحديث عن الآية الكريمة، أرى: أنَّ قوله (مِنْكُمْ) أن (مِنْ) مُرجَّحٌ أن تكون للتبعيض، أو أن تكون لبيان الجنس، وعلى المعنى الأول: يكون العلماء هُمّ من يقومون بالأمر بالمعروف والنهـــي عـــن المنكر، والثاني: أن يكونَ جميعُ الناس مأمورين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وأرى أن (من) هنا للتبعيض، فالمراد هنا أنَّ من عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العلماء أو من علم المعروف والمنكر، فالجاهل بهما قد يأمر بمنكر أو قد ينهى عن معروف.

وعلى الرغم من الاختلاف في قول (من) هنا، إلا أنَّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منزلة عظيمة هنا: وهي وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لما فيه خير على الفرد والمجتمع، وما يترتـــب عليه من تحقيق الفلاح، أي النجاح في الدارين، كما أظهرت أهمية طلب العلم.

ثانيًا: أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

1. سبب في تحقيق الفلاح

في الآية السابقة ظهرت منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال تحقيق الفلاح، أي الفـــوز والنجاة في الدنيا والأخرة.

حيث ذكر ابن فارس: (فلح): أنَّ "الفاء، واللام، والحاء أصلان صحيحان الأول يدلُّ على شقّ، والآخر يدلُّ على فوزٍ وبقاء" (فارس، 1979، صفحة 450/4).

كما أنَّ للفلاح طرقاً أخرى ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم، قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [الحج:77] والخير كل ما أمر به الشرع، "أي كل ما يرغب فيه الكل كالعقل، والعدل، والفضل، والشيء النافع والمال وضده الشر". (البركتي، 2003، صفحة 91).

والفلاح يكون في الدنيا والأخرة؛ حيث يحرص كل مؤمن على بلوغه، فالفلاح في الدنيا يكون في صحة البدن والأهل، والولد، والشعور في الأمان في الدنيا، والأخرة، وسعة الرزق في المال، والولد، ويكون الفلاح في الآخرة بالفوز برضى الله، والدخول إلى الجنة، والنجاة من النار، والهداية في الدنيا والأخرة، ومجاورة الانبياء والمرسلين (رضوان الله عليهم).

2. سبب في الخيرية

قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: 110] جعل الله سبحانه وتعالى خيرية هذه الأمة مرتبطا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية:

صنف الطبري أقوال المفسرين في هذه الآية؛ حيث قال:

1. قال بعض الأئمة: هم المهاجرون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة.
2. وقال آخرون: هم الذين عملوا بهذه الشروط وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

3. وقال آخرون: أكثر الأمم استجابة للإسلام.

4. وقال آخرون: هم الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس (الطبري، 1994، الصفحات 687-671/5).

يرى الباحث: القول الثاني هو الأقرب للصواب؛ لأنَّ الأمة الّتي تؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، هي أفضل وأنفعها الأمم، وأنفع الناس للناس، والأمة التي تترك هذا الفضل فقد خرجت من مدح الله إلى ذمه.

حيث قال القرطبي: "في قوله تعالى مدح لهذه الأمة على سائر الأمم، وذلك لما أقاموا واتصفوا به، فإذا تركوا هذا الفضل زالت عنهم صفة المدح ولحقت بهم صفة الذم" (القرطبي، 1964، صفحة 264/5).

وقد ظهرت منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كونها سبباً في خيرية هذه الأمة، وتصنيف الله لهم بأنّهم أفضل وأنفع الأمم وأنفع الناس للناس، ومدح الله سبحانه وتعالى لهم؛ بسبب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

3. أهمية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر

ذكر النحاة قديماً أنَّ الكلام نظم يأتي بعضه بعد بعض، مثلما يأتي الفاعل بعد الفعل، أو يأتي الخبر بعد المبتدأ. يقول فاضل السامرائي: إذا أتيت بالكلام على الأصل لم يكن فيه نوع من التقديم أو التأخير، وإذا قدمت الفاعل على الفعل، او الخبر على المبتدأ دخلت في باب التقديم والتأخير (السامرائي، 2021، صفحة 41).

وإذا تأملنا الآية السابقة قدم الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان؛ وذلك لعظم هذه المنزلة، والمعروف أنَّ الإيمان هو أساس الدين، والشرط العام لقبول العبادة، حيث قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[البقرة:285].

والإيمان أصل الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خُصلة من خصل الإيمان، لكن لعظم هـذه المنزلة وأهميتها أتى تقديم الفرع على الأصل، ففي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب للمحافظـة على هذا الدين، وباب لصلاح المجتمع.

وقد ذكر السامرائي سابقاً نقلاً عن سيبويه: أنَّ العرب قديماً يقدمون الَّذي بيانه أهم، والَّذي هـو ببيانـه أعنى، حتى وإن كان جميع الكلام يهمهم ويعنيهم (السامرائي، 2021، الصفحات 41-42).

وفي موضع أخر قال تعـالى:﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[التوبة:71].

وفي هذه الآية الكريمة قدم الله سبحانه وتعالى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الصلاة، وقـد جاء هذا التقديم لعظم هذا الأمر؛ وذلك لأنَّ في هذه الآية الكريمة خلَّة المؤمن والفرائض التي أوجبها الله عليه، والتي منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما يحققه من صلاح للفرد والمجتمـع، وهدايـة النفس إلى الحق، والابتعاد عن الباطل، مما يؤدي إلى صحة وقبولها الصلاة.

وظهر عظم هذه المنزلة عندما قدم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الصلاة، والمعروف أنَّ الصلاة الركن الثاني من أركان الاسلام، إلا أنَّ الله قدم هذا الأمر لما فيه خير للناس، وترسيخ العقيـدة الصحيحة، والحماية من الهلاك، وإرشاد الناس إلى الطريق الصـحيح. وخلاصـة القـول: إنَّ للأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر منزلةً عظيمة؛ لذلك قدم الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر على الإيمان والصلاة.

4. تحقيق التمكين في الأرض، والانتصار على الاعداء

قال تعـالى:﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾[الحج:41].

إنَّ: الأصل في (إنَّ) أن تأتي للتوكيد. يقول ابن يعيش إنَّ وأنَّ فائدتهما لتأكيد مضمون الجملة حيثما وردت، إلا أنَّ فائدة (إن) تَدلّ على استقلالها مع التوكيد، وأما (أن) تّدلّ على حكم المفرد مع التوكيد (يعيش، صفحة 59/8). وفائدة التوكيد: الاستغناء عن تكرار الجملة مرتين أي القول: إن خالداً قائم ناب مناب القول خالدٌ قائم خالدٌ قائم.

ومعنى (مَّكَّنَّٰهُمۡ): أي نصرهم الله على اعدائهم؛ لتحقيق السلطة والنفاذ في البلاد. وتأكيد الله تمكينهم في الأرض جاء بسبب الأمور الأربعة وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال أبو حيان: "والظاهر أنَّه يجوز إعراب (ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ)، ما جاز في اعراب ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ﴾ [الحج:40]. وقال الزجاج: هو منصوب بدل ممن ينصره، والتمكين السلطنة ونفاذ الأمر على الخلق، والظاهر أنَّه من وصف المأذونين لهم في القتال وهم المهاجرون، وفيه إخبار بالغيب عما يكون عليه سيرتهم أن مكَّن لهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدِّين" (الأندلسي، 2010، صفحة 350/6).

ورجح أبو حيان أنَّ الله جعل التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العدلة في الآية الكريمة على المهاجرين والخلفاء الراشدين.

وذكر الزمخشري: في الآية الكريمة أخباراً عن سيرة المهاجرين وتمكين الله لهم وكيف يقومون بأمر الدين. وقوله (ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ) مجرور تابع للذين أخرجوا (الزمخشري، 2009، صفحة 2697). وقوله: (وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ)، "أي مرجعهم إلى حكمه وتقديره. وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم" (الزمخشري، 2009، صفحة 2697).

وقوله تعالى: (وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ) فيه توعد على ما يترتب عليه مخالفة التمكين (الأندلسي، 2010، صفحة 390/6).

وعلى خلاف أقوال المفسرين السابقين، للآية الكريمة منزلة عظيمة، حيث أظهرت دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تحقيق التمكين في الأرض والانتصار على الاعداء.

5. الأمن من العذاب والهلاك

قال تعالى:﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾[المائدة: 79].

يقول الطبري: في تأويل الآية الكريمة: لا ينهى بعضهم بعضا عن المنكر الَّذي كانوا يفعلونه، وقوله (لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ) فيه قسم؛ وذلك بسبب اشتراكهم بالمعصية، وعدم تحذير المشركين من ترك تلك المعصية (الطبري، 1994، صفحة 592/8).

وأضاف القرطبي في قوله تعالى: "ذمٌ لتركهم النهي وكذا من بعدهم يذمُّ من فعل فعلهم". وفي قول ابن عطية: "والإجماع منعقدٌ على أن النهي عن المنكر فرضٌ لمن أطاقه، ونهى بمعروف وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين؛ فإن خاف فينكر بقلبه، ويهجر ذا المنكر، ولا يخالطه" (القرطبي، 1964، صفحة 105/8).

وظاهر القول: (لَا يَتَنَاهَوۡنَ) لا حرف نهي موضوع لطلب، والمعلوم أنَّ الطلب يكون من أعلى إلى أسفل على وجه الاستعلاء، وقوله (يَتَنَاهَوۡنَ) أي لا ينهى بعضهم بعضا، أي اشتراك كلا الطرفين في عدم النهي.

(فعلوه) تدلُّ على وقوع الفعل، أي تمَّ وانتهى، إلا أن وجود حرف الجر (عن) جعل للآية معنى أخر وهو الاستمرار في فعل المنكر.

(ل): لام القسم، جاءت لمعنى التعجب، حيث قال سيبويه: لا تأتي لام القسم إلا أن يكون معنى التعجب (سيبويه، صفحة 144/2). وبئس: فعل ماضٍ استعمل لإنشاء الذم. قال السامرائي: (نعم وبئس) "يستعملان لإنشاء المدح أو الذم، وهما في الاستعمال جامدان لا ينصرفان" (السامرائي، 2020، صفحة 349/4). وظهرت منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من خلال عدم إنكار المنكر وهذا سبب اللعنة والهلاك وحلول العذاب.

وبالتأمل والتفكير الدقيق، نُلاحظ من خلال ما سبق أنَّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في القرآن الكريم، استحوذ منزلة عظيمة، وقواماً بليغاً إذ يُعدّ من أعظم النعم التي أنعم بها الله سبحانه وتعالى؛ حيث أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير.

واستخلاصاً لما سبق، فقد ظهرت فائدة هذه المنزلة من خلال الحث على طلب العلم؛ للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحقيق الفلاح في الدنيا والأخرة، والنجاة في الدارين، وتوثيق خيرية هذه الأمة، وتفضيل الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان والصلاة، والنجاة من الهلاك، ومدح الله سبحانه وتعالى لهما، وأعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن زاوية أخرى فإن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لهُ آثار مُضرّة وجسيمة في الفرد والمجتمع، فمن تلك الآثار انتشار الجهل، والخبث، وحلول، العذاب، والعقاب والهلاك في الدنيا والأخرة، والابتعاد عن الإيمان، وترك الصلاة، والغرق بالذنوب، وخرجوهم من مدح الله إلى ذمه.

المبحث الثاني: منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السنة النبوية الشريفة

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم؛ ليكون المصدر الأول للشريعة الإسلامية، ثم بعث الله سيدنا محمد؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فجعل السنة النبوية المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، نستنبط منها الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

والسنة النبوية: تقوم بتحليل بعض الأشياء، وتحريم أخرى، وتضبط مقاييس الفروض والواجبات والسنن والمباح والمكروه، وتقوم بتفسير القرآن وتفصيله، وتخصيص عامه، وتقييد مطلقه (كولن، 2005، صفحة 25).

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بطاعتهِ، وطاعة رسوله الكريم لقوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء:59]، وهذا متوقف على طاعته في الأوامر، والنواهي، واتباع سنته بعد وفاته، وصلاح العباد في الدنيا، والآخرة متوقف على طاعة الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وتمام الطاعة متوقف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لذلك خصص الله سبحانه وتعالى للسنة النبوية دوراً كبيراً في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لتحقيق طاعة الله.

ومن الجدير بالذكر أنَّ سنة الانبياء– رضوان الله عليهم – ومن تبعهم من السلف الصالحين، على الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكم هُدد النبي – صلى الله عليه وسلم – بالقتل، والطرد في سبيل الدعوة، فكان خير المرسلين.

وقد أولى الله سبحانه، وتعالى للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية كبيرة؛ وذلك لعظم هذه المنزلة، فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر قوام الدين، وفيه صلاح للعباد، والمجتمع، وقد جعل الله سبحانه وتعالى من أعظم الأعمال التي تعود على العباد بالأجر العظيم.

ويُعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات التي تراخى وتهاون بها بعض المسلمين؛ لذلك أخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن معه من الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم – على حث الناس على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من خلال بيان أهمية الأمر والنهي، وبيان خطر ترك الأمر، وقد تناولت السنة النبوية الموضوع من جوانب مختلفة منها:

أولاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب للتحذير والاستجابة

"والذي نفسي بيده لتآمرن بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا ثم تدعونه فلا يستجاب لكم" (الترمذي، 1996، ح:2169).

واللفتة اللغوية في هذا الحديث الكريم هي دخول لام الأمر على الفعل المضارع، ودخول لام الأمر على الفعل المضارع تحمل دلالتين إما للأمر أو للدعاء، وكلا من الأمر أو الدعاء يدلُ على طلب حصول الفعل.

والفرق بين الأمر والدعاء هو أنَّ الأمر يكون ممن هو فوق إلى من هو أقل رتبة مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[الطلاق:7]، وإما الدعاء فيكون ممن هو أقل رتبة إلى من هو أعلى منه مثل قول الله: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[الزخرف:77].

والمعلوم أنَّ لام الأمر لام طلبية تدلُّ على طلب حصول الفعل في المستقبل، وهي تحمل دلالتين، وأضاف (السامرائي، 2020، صفحة 7/4). أنَّها قد تخرج إلى معنى أخر، وهو التهديد مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:29]، ومعنى أخر وهو الخبر، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[مريم:75].

وفي الحديث الشريف: بدأ عليه السلام بالقسم، حيث أقسم الرسول الكريم بالنفس؛ لأنَّ النفس من نِعمّ الله سبحانه وتعالى على الإنسان، فالله من يهديها أو يضلها، ويغيرها من حال إلى حال. ثم فرغ إلى ذكر المقسم عليه وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والمعلوم أنَّ القسم لا يكون إلا في الأمور التي لها شأن ومنزلة عظيمة، وهذا فيه بيان لعظم هذه المنزلة، فالحديث الشريف لهو دليلٌ على أهمية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث أنه من أهم الواجبات والفروض، من أهم العوامل التي تؤدي إلى استجابة الدعاء، والحماية من العقاب.

قال ابن هشام: (أو) "لأحد الشيئين، أو الاشياء، مفيدة بعد الطلب للتَّخيير والإجابة، وبعد الخبر للشك أو التشكيك" (الأنصاري، 2001، صفحة 577/1).

وفي الحديث الشريف جاء حرف العطف (أو) بعد الجملة الخبرية، وهو على قول ابن هشام للشك، والظاهر أنَّه جاء بمعنى الإبهام، فالرسول الكريم لم يحدد نوع العقاب المبعوث من الله بسبب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمؤكد فقط في قوله هو أنَّ هذا العقاب قريب في الدنيا.

وحرف العطف: (ثم) هو أحد حروف العطف الذي يستخدم للتراخي، حيث قال المبرد: "ثم مثل الفاء، لكنها أكثر تراخيًا" (المبرد، 1994، صفحة 148/1). ذُكر في معاني النحو أنَّ معنى التراخي: المهلة، وعليه يكون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخطر الاعمال على العباد (السامرائي، 2020، صفحة 285/3). والنون في قوله (لتآمرنَّ، لتنهونَّ، ليوشكنَّ) تدل على التوكيد حيثما وقعت.

وقد ظهرت عظم هذه المنزلة في الحديث الشريف من خلال: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب الحماية من حلول العقاب، وباب لاستجابة الدعاء، وفيه صلاح للعباد والمجتمع، وباب لتغير أحول الناس.

قال رسُول الله: أيها الناس! إن الله عز وجل يقول لكم: مُروا بالمعروف وانهوا عن المنكـــر، قبـــل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم (ابن حبان، 2012، ح:4779).

أي: حرف نداء يبنى كسائر النكرات، ويستخدم للمنادى القريب مثـــل الهمـــزة (الانصـــاري، صـــفحة 43/2). والهاء الملحقة به للتنبيه.

وإنَّ حرف توكيد، يأتي لتأكيد مضمون الجملة، وقوله: يقول جملة محكية بالقول والأصل فيها بأن تحمل الكلام المفيد أو ما يأتي بمعناها (سيبويه، صفحة 62/1). وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر: للأمر، جاء على صيغة الطلب، ويتضمن إرشاد الناس على الأمر بالمعروف، ومنع غيرهم عن المنكر.

وقد ظهر أثر هذا الحديث بمخالفة أمر الله بالأمر أو النهي وبيان أثر هذه المخالفة بعدم استجابة الدعاء، والحرمان من عطاء الله، والنصرة.

ثانياً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب لتكّفير الذنوب والخطايا

"فتنة الرجل في أهله، وماله، ونفسه، وولده، وجاره، يكفرها الصـــيام والصـــلاة والصـــدقة، والأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر" (البخاري، 1993، ح:3393).

الفتنة: (فتن) جاء في معجم مقاييس اللغة: أنّ "الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدلُّ على ابتلاء واختبار ومن ذلك الفتنة" (فارس، 1979، صفحة 472/4).

وقيل الفتنة: الخبرة والابتلاء، وهو ما اشتبه فيه الحق والصواب وما تبين حال الإنسان من خير ومـــن شر (البركتي، 2003، صفحة 162).

وحرف الجر (في) كما يقول السامرائي: يفيد الظرفية (الســـامرائي، 2020، صـــفحة 65/3)، وذهـــب المبرد أنَّها للوعاء (المبرد، 1994، صفحة 45/1).

وظاهر مما سبق يريد الرسول الكريم أن يبين أنّ المراد بالفتن الذنوب التي تحدث مع الرجل نتيجة مخالطته لأهله، وماله، ونفسه، وولده، وجاره، (الذنوب الصغيرة) التي تحدث بسبب المعاشرة تكفرها الأعمال الآتية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصلاة، والصيام، والصدقة.

والفعل المضارع: (يكفرها): هو فعل مضارع خبري لفظاً، وطلبي بالمعنى، فالرسول الكريم يريد الطلب من الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلاة والصيام والصدقة؛ من أجل تكفير الذنوب، وسبب عُدُول الرسول الكريم هو التوكيد، وفيه دلالة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنَّه باب تكفير الذنوب والخطايا.

يرى الباحث: غير ذلك، وخصوصاً أنَّ الحديث رويَّ على لسان حذيفة بن اليمان، في عهد عمر بن الخطاب، في وقت كان فيه المسلم حريصاً على أصغر الأمور.

والمعروف أنَّ الفتن تقسم إلى قسمين، فالقسم الأول: الفتن الصغيرة وهي ما تحدث مع الرجل نتيجة مخالطته لأهله وماله وغيرها من الأمور الصغيرة، فهذه الذنوب تكفرها الأعمال الصالحة، والقسم الثاني: وهي الفتن الكبيرة العامّة التي تصيب المسلمين، وهي المرادة في الحديث الشريف، حيثما أكمل الحديث وقال أريدُ التي تموج كموج البحر، وهي ما تكّفرها الأعمال الصالحة أيضًا.

وللأمر بالعروف والنهي عن المنكر دور كبير في حماية المسلمين من الفتن الكبيرة التي تتجلى في الحروب وسفك الدماء، وفيه دور كبير لتكّفير الذنوب، وتوحيد المسلمين على كلمة الإسلام، وفي الحديث الشريف حسن تعامل الصحابة مع الخليفة.

ثالثاً: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب العقاب العام

جاء في كتاب مجموعة فتاوي ابن باز: "سَمعَ أبو بكر الصديق رضى الله عنه النبي يقول: إنَّ الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه، أوشك أنَّ يعمهم الله بعقابٍ" (باز، 1420هـ، صفحة 402/6).

يقول ابن عقيل (إنَّ) حرف توكيد، وهو الأصل فيها (عقيل، 1994، صفحة 269/1)، وأضاف ابن الناظم: (إنَّ) فائدتها تأكيد الحكم، وإبعاد الشك والإنكار عنه (الناظم، 2000، صفحة 116).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم أسس الصلاح والحماية من العقاب وفي الحديث الشريف بدأ الرسول الكريم بحرف توكيد، لتأكيد الحكم، ولبيان أهمية الأمر وعظمته، والربط بين عدم تغير المنكر والعقاب.

قال فاضل السامرائي: قد تأتي (إنَّ) لربط الكلام بعضه ببعض، فلا يحسن سقوطها منه، وإن اسقطها رأيت الكلام مختلًا غير ملتئم (السامرائي، 2020، صفحة 364/1).

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دور كبير في حماية الناس من العقاب، حيث يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب خيرية هذه الأمة، وتركه يعتبر من أهم أسباب حلول العقاب، والعذاب، على الناس. وفي الحديث الكريم تحذير، وترهيب من ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

واستخدام الرسول للفعل (أوشك)؛ للدلالة على قرب الأمر وسرعته؛ حيث ذكر ابن فارس "الواو والشين والكاف كلمة واحدة هي من السُّرعة وأوشك فلانٌ خروجاً: أسرع وعجل". وقال سمعت أحمد بن طاهر بن النَّجم يقول: (أوشك يوشك لا غير) (فارس، 1979، صفحة 473/2).

وفي الفعل أوشك تحذير، وترهيب من سرعة العقاب، إذا ترك الناس الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

رابعاً: مراتب إنكار المنكر

قال النبي: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (مسلم، 1955، ح:49).

يقول ابن فارس: (رأى) "أنَّ الراء والهمزة والياء، أَصل يدلُّ على نظر وابصـــار العـــين أو بصـــيرة". والبصيرة من (بصر) وهو العلم بالشيء (فارس، 1979، صفحة 472/2).

يرى الباحث: في الحديث الشريف تحمل احتمالين، الاحتمال الأول: أن تكون مـــن الرؤيـــة البصـــرية، والاحتمال الثاني: أن تكون من رؤية القلب أي البصيرة وهي العلم والمعرفة، والاحتمال الثاني أقـــرب للصواب، وذلك لأنه أعم واشمل.

والفعل رأى من أفعال اليقين، التي تحمل الرؤية البصرية والقلبية، والإنسان لا يـــرى بالقلـــب قبـــل أن يتيقن بالشيء، ويتعلمه فالإنسان مطالب بمعرفة المعروف، والمنكر قبل الأمر به أو النهي عنه، وفيـــه دلالة على أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقع إلا على من علم المعروف والمنكر.

وحرف العطف الفاء: يفيد الترتيب والتعقيب، وفي الحديث جاء المعطوف مع المعطوف عليـــه، وذلـــك لتحقيق الأمر بمدة قريبة. قال سيبويه "الفاء وهي تضم الشيء إلى شيء كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متّسقا بعضه في إثر بعض" (سيبويه، صفحة 217/4).

ودخول لام الأمر على الفعل المضارع، دلالة على وجوب تحقيق ذلك الفعل وهي تدلُّ علـــى وجـــوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند جمهور العلماء.

وقد ظهر فضل الحديث الشريف في مراتب إنكار المنكر، وهي ثلاث مراتب: التغير باليد، ثم باللســـان، ثم بالقلب ولذلك قواعد وضوابط لكيفية تحقيق الأمر:

في المرتبة الأولى: التغير باليد: وهي تقع على كل من تمكن من ذلك، وهي من الأعلى إلى أسفل: مثل من الحاكم إلى الرعية، الأب إلى ابنائه، من المعلم إلى طلابه.

والمرتبة الثانية: التغير باللسان: وهي من عامة الناس إلى عامة الناس، وتنص على التـــذكير بـــالأجر العظيم عند ترك المعصية، وعلى العقاب الشديد عند الاصرار على المنكر والمعصية.

والمرتبة الثالثة: التغير بالقلب: وهي أضعف المراتب، وهي من أسفل إلى الأعلى، وواجبة علـــى كـــل مسلم.

وللحديث الشريف فضائل أخرى، تتجلى بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووضع ضـــوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصل الإيمـــان وأنّ الإيمان يزيد وينقص، والحماية من العقاب.

وقد ذكر الأمام النووي: هذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام على وجـــه العمـــوم (النـــووي، 1994، صفحة 27/2).

واستنادًا إلى ما سبق، نلاحظ أنَّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية كبيرة على الفرد والمجتمع، ولأهمية هذا الموضوع قسم الباحث الحديث في هذا الجانب على ثلاثة أقسام:

الأول: أثر وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الفرد والمجتمع، من خلال الحمايـــة مـــن العقاب، وباب لاستجابة الدعاء، وباب لتغير أحوال الناس، وحماية المسلمين من جميع الفـــتن، وتكّفيـــر الذنوب.

الثاني: أثر ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفرد والمجتمع، يتجلى بحلول العقاب والعذاب على الناس. والحرمان من الأجر العظيم.

الثالث: في مراتب إنكار المنكر، وكيف يقوم الأمر كله (التغير باليد، ثم اللسان، ثم القلب).

والرُّسل–عليهم السلام– أفضل البشر، وأكملهم أخلاقًا، أختارهم الله لحمل رسالته، التي تقوم على أخبار الناس كمال هذا الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

المبحث الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال تفسير البحر المحيط

ذكرت سابقاً أنَّ علم التفسير من أفضل العلوم في الشريعة الإسلامية وأشرفها على الإطلاق؛ لأنَّه يتَّسم بكتاب الله عز وجل، إذ يقوم على إيضاح كلام الله عز وجل وفهمه، والبحث في ألفاظ كلامهِ من حيث معانيها ودلالاتها وأحكامها الإفرادية.

من حكمة الله عز وجل، أنَّه أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد بلسان قومه؛ ليفهموا معانيه، وأحكامه ودلالاته، ولو كان بغير لغة قومه لما آمن معه أحد.

"كانت لغة العرب من أهم المصادر وأوثقها في معرفة كلام الله تعالى، وكان من أهمِّ ما فيها – وهو من بدايات علم التفسير – معرفة دلالات الكلام (أي معاني الألفاظ) التي يدور عليها كثيرٌ من علم التفسير، ليعرف المراد بالخطاب" (الطيار، 2002، صفحة 5).

وعليه، لا يمكن العدول عن علم اللغة في تفسير كتاب الله عز وجل إذ يقوم التفسير اللغوي على إيضاح معاني القرآن الكريم، والسنة النبوية، من خلال تفسير ألفاظهما وأساليبهما، بما ورد عن كلام المفسرين من الناحية اللغوية.

ويُعد التفسير اللغوي: من أقوى طرائق التفسير وأفضلها، وذلك إذا وقفنا عند التفسير بالمأثور لوجدناه يعتمد على الآثار المنزلة عن الصحابة والتابعين، التي تختلف اختلافاً كبيراً فيما بينهم، ومنهم من اختلطت لغتهم بلغة الأعاجم فأصبحت لغتهم ضعيفة لا يحتج بها، ومنهم من اعتمد التفسير بالرأي الَّذي يعتمد على آراء المفسرين الّتي قد تصيب وقد تضعف، ومنهم من اعتمد على جمع الأحكام الفقهية ، وهذا يحتاج إلى معرفة أقوال أهل السلف والموازنة فيما بينها، ثم استنباط الأحكام الشرعية، لذلك يُعد التفسير اللغوي أفضل أنواع التفاسير وأدقها.

وجمع الحلواني مصادر تقعيد النحو العربي بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، والشعر العربي، وكلام العرب (الحلواني، صفحة 32)، وقال الأفغاني "لم يتوفر لعلماء اللّغة ما يحتج به ما وفرهُ القرآن الكريم (الأفغاني، 1987، صفحة 5).

ويعدُ تفسير البحر المحيط من التفاسير اللغوية القوية، التي تقوم على توضيح معاني المفردات والتراكيب، وإعراب الكلمات، ومعرفة أوجه التفاسير في النحو والإعراب.

وسار أبو حيان في كتابه على نهجٍ معين، حيث كان يبدأ الكلام على مفردات الآيات، ثم أسباب النزول، ثم الناسخ والمنسوخ، ثم تناسب الآيات، ثم ذكر القراءات وتوجيهها، وذلك وفق قواعد النحو والإعراب ومعاني المفردات.

أولاً: على من يقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[آل عمران:104].

جعل أبو حيان الحديث في الآية الكريمة على من يقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذكرتُ سابقاً أنَّ أبا حيان جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعلقاً ببعض الأمة (من يصلح لذلك).

اتفق أبو حيان على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مستدلاً بذلك على ما ذُكرَ في كتاب الله عز وجل (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ) وجاعلًا من هذه الآية دليلاً على أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض. واختلف العلماء بنوعية الفرضية.

أ. **فرض كفاية:** وهو إن قام به البعض سقط عن الباقيين، وهو ما رجحهُ أبو حيان والإمامان الضحاك والطبري (الأندلسي، 2010، صفحة 289/3). ويؤيدهم بذلك الزمخشري: حيث جعل

(من) للتبعيض لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية (الزمخشري، 2009، صفحة 187).

ب. **فرض عين:** وهو أنَّ جميع الناس مأمورون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يسقط عن أحدٍ، وهو ما رجحهُ الزجاج (الأندلسي، 2010، صفحة 23/3) ويؤيدهُ البغوي: مستدلًا بذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[الحج:30]. أنَّ الله أراد جميع الأوثان، وليس بعض الأوثان (البغوي، 1989، صفحة 48/1).

ت. انتقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى فرض عين، أو العكس: وهو ما يؤيدهُ النووي. وحقيقة الأمر أنَّ لـ(من) معاني كثيرة، ومن ضمن هذه المعاني أولا: للتبعيض نحو قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾[البقرة:253]. والمعنى الثاني: لبيان الجنس ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[الحج:30].

يرى الباحث: أنّ الكلام في قوله تعالى (وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ) هو على التبعيض؛ لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون إلا على من علم المعروف والمنكر فالجاهل بهما يمكن أن يأمر بمنكر أو ينهى عن معروف.

وفي الكلام على ما زعمهُ الزجاج: كيف لجاهل بالمعروف أن يأمر به، أو ينهى عن منكرٍ، وهل يعقل أن يكون جميع الناس علماء يعرفون المعروف والمنكر، ثُمَّ لماذا خص الله صفة الخيرية لأمةٍ معينة.

وعلى قول البغوي: ذكرت سابقًا أنَّ لـ(من) معاني كثيرة، فيمكن أن تأتي في موضوع معين بمعنى معين وبموضع آخر يمكن أن تأتي بمعنى آخر، وفي الآية التي استدل بها البغوي جاءت لبيان الجنس، وفي هذه الآية جاءت للتبعيض.

وانتقال الأمر بالمعروف من المعنى الكفائي إلى المعنى العيني يكون وفق موقف معين لا غير، ولا يحكم على الفرع ويترك الأصل وهو المعنى الكفائي (قاسم، 2000، صفحة 12).

ثانياً: على من وقع خطاب خيرية الأمة

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: 110].

أخذ أبو حيان القول في هذه الآية الكريمة على من وقع خطاب خيرية هذه الأمة، وما المقصود بالمعروف والمنكر. ورجح أبو حيان: أنَّ الخطاب وقع على أصحاب رسول الله، فيكون المقصود أمة محمدٍ، والصحابة خيرها. ويؤيدهُ: عكرمة ومقاتل: حيث قالا نزلت في أصحاب رسول الله، الّذين قال لهم بعض اليهود "ديننا خيرٌ مما تدعوننا إليه، ونحن خيرٌ وأفضل" (الأندلسي، 2010، صفحة 30/3). ويؤيدهم أيضا في هذا القول الضحاك: حيث قال وهم أصحاب رسول الله خاصة. " وكانوا هم الرواة الدعاة الَّذين أمر الله المسلمين بطاعتهم" (الطبري، 1994، صفحة 673/5).

ويخالفهم القول: ابن عباس، حيث رجح أنَّها نزلت بالمهاجرين (الطبري، 1994، صفحة 671/5). وقال مجاهد: إنَّها نزلت على الشرائط المذكورين وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله (القرطبي، 1964، صفحة 260/5).

وقال الحسن وجماعةٌ: وقع خطاب الخيرية على الجميع بأنَّهم خيرٌ الأمم ويؤيد قولهم:﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة:143] (الأندلسي، 2010، صفحة 30/3).

واللفتة اللغوية فيما سبق هي على من وقع عليه خطاب الخيرية، حيث رجح أبو حيان أنَّها بأمة محمد، والصحابة هم خيرها، وأيدهُ القول الضحاك وعكرمة ومقاتل، وخالفهم القول ابن عباس ومجاهد والحسن وجماعة.

يرى الباحث: أنَّ الخطاب في هذه الآية لجميع الأمم، وخير هذه الأمم أمة محمد، الَّذين قال فيهم الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: 143]

وقول رسول الله: "إنكم وفّيتم سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله". (ابن ماجه، 1954،ح: 4288). وخير هذه الأمم أمة محمد ومن جاء بعدهم من العاملين بشريعة الإسلام، والَّذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

ثم أخذ أبو حيان القول في الآية الكريمة على (كان) في قوله (كُنتُمْ). حيث رجح أبو حيان: أنَّ (كان) هنا ناقصة، وخبرها (خَيْرَ أُمَّةٍ). ولا تدلَّ هنا على مضيَّ الزّمان وانقطاع النسبة، بل تدلَّ على دوام النسبة.

وقال الزمخشري: "كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا انقطاع طارئ، (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ): أي وجدتم خير أمة، وقيل كنتم في الأمم السابقة مذكورين بأنكم خير أمة "، وقوله تعالى: (تأمرون، تنهون، تؤمنون) كلام متصل بكونهم خير أمة. وقوله تعالى: (وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ)، وجب الإيمان بكل ما يتصل بالله سبحانه وتعالى من كتب، ورسول، وملائكة ....، ثم جعل ترك شيء من ذلك كأنه غير مؤمن بالله (الزمخشري، 2009، الصفحات 188-189).

وقول الزمخشري: (لا تدل على عدم سابق) أي أنَّها ليست بمعنى صار، فإذا جاءت بمعنى صار دلّت على عدم سابق، وقوله (ولا على انقطاع طارئ) أي إنَّها كسائر الأفعال تدل على الانقطاع، وقد يرادُ بها الاستمرار.

واللفتة اللغوية في قوله تعالى: هي قوله (كانَ)، قد تكون هنا التامة، أو الناقصةَ، أو الزائدة، أو بمعنى صارَ. وعلى المعنى الأول: تامَّةٌ تهدف إلى حدوث المراد وهو ما لا يحتاج إلى خبر والمعنى: حَدثتُم أو وجدتم خير أمةٍ، وعلى الثاني: (كانَ) هنا الناقصة أي وجدها في الزمن الماضي على سبيل الإبهام، والمعنى: قدرتم في علم الله خير أمة، وعلى المعنى الثالث: إنها زائدةٌ، والمعنى: أنتم خير أمة، وعلى المعنى الرابع صار: أي تحولتم إلى خير أمة.

يرى الباحث: أن (كان) هنا الناقصة. تدلُّ هنا على تحقيق القول في الزمن الماضي.

وفي قواعد اللغة العربية: تدلَّ كان على الانقطاع: نحو (كان محمد مجتهدًا)، وقد تدلَّ على الاستمرار نحو (كان ربّك قديرًا) (الحميد، 2009، صفحة 75).

ورجح أبو حيان أن المقصود بالمعروف والمنكر في هذه الآية الكريمة هو العموم، أي كل ما أمر به الشرع، والمنكر كل ما نهى عنه الشرع وأنكره، وتقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان؛ لأنَّ الإيمان مشترك بين جميع الأمم وليس فيه تأثير، لذلك أتى هذا التقديم.

ثالثاً: في تحقيق الأجر العظيم

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:114].

رجح أبو حيان أنَّ المقصود بالمعروف بالآية الكريمة عام بكل بر، وقاله أبو سليمان الدمشقي وابن عطية، وقال ابن عباس ومقاتل: المعروف الفرض، وقيل: إغاثة الملهوف (الأندلسي، 2010، صفحة 493/1). وقال الزمخشري: "إنَّ المراد بالصدقة الواجب، وبالمعروف ما يتصدق به على سبيل التطوع" (الزمخشري، 2009، صفحة 260).

يرى الباحث: أن المقصود بالمعروف: العام؛ لأنّ المعروف" ما قبله العقل وأقره الشرع ووافقه كرم الطبع" (المناوي، 1990، صفحة 260). وأعمال البر جميعها يعرفها العقل، وأخرج الله سبحانه وتعالى الصدقة والإصلاح بين الناس للأهمية، وما يؤكد هذا القول ما وضحه الفخر الرازي: إنَّ الأقسام الثلاثة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى تندرج تحت عمل الخير، وأعمال الخير جميعها تحت الأمر بالعروف والنهي عن المنكر.

وقد ذكر عن الرسول أنه قال: "كلام ابن آدم عليه لا له إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر الله عز وجل". ابن ماجه. سنن ابن ماجه- ضعيف ابن ماجه. كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ح4045.

وقال أبو حيان: الضمير (هم) في قوله تعالى (نجواهم) عائد على قومٍ معروفين.[1] وقال ابن عطية: هم عائدة على الناس أجمعين، وقوم طعمة تندرج تحت هذا العموم. وهذا في باب الإيجاز والفصاحة (الأندلسي، 2010، صفحة 265/3).

يرى الباحث: أنَّ الضمير (هم) عائد على الناس أجمعين، وليس عائداً على قوم طعمة؛ وذلك بسبب عدم توافق المقام مع ما يتبع للآية الكريمة فلا اختصاص في الأمر بالصدقة، أو معروف، أو اصلاح بين الناس.

[1] قال أبو العباس: وهم قوم طعمة الذّين ناجوا اليهود على تلبيس رسول الله.

رابعاً: في اشتراك العصاة بإنكار المنكر

قال تعالى:﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79].

ذكر أبو حيان في تفسيره (كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ)، "وظاهر التفاعل بمعنى الاشتراك، أي: لا ينهى بعضهم بعضا، وذلك أنَّهم جمعوا بين فعل المنكر والتجاهر به، وعدم النهي عنه، والمعصية إذا فعلت وقدرت على العبد ينبغي أن يستتر بها" (الأندلسي، 2010، صفحة 548/4). ورجح أبو حيان: التفاعل بمعنى الاشتراك، أي اشتراك العصاة في المنكر وعدم النهي عنه.

وقال الزمخشري: لا يتناهون، أي لا ينهى بعضهم بعضًا، وقوله (فَعَلُوهُ)، أي اشتراكهم في الفعل. وقوله (لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) "للتعجب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المنكر" (الزمخشري، 2009، صفحة 304).

والإجماع على أنَّ النهي عن المنكر واجب لمن أطاقه ونهى بمعروفٍ وأمن الضرر على المسلمين، فإن تعذر على أحدهم النهي عن المنكر لشيء من هذه الوجوه ففرض عليه الإنكار بقلبه، وأنَّ لا يخالط هذا المنكر. قال ابن عطية: (ما) نكرة موصوفة، وتقدير القول: لبئس الشيء الذي كانوا يفعلون (عطية، 2001، صفحة 224/2). وعليه قال أهل العلم: ليس من شروط الناهي أن يكون تاركاً للمعصية. وقاله أبو حيان. قال ابن عطية: (ما) نكرة موصوفة، وتقدير القول: لبئس الشيء الذي كانوا يفعلون.

يرى الباحث: في هذه الآية الكريمة: اشتراك العصاة بترك النهي عن المنكر الذي كانوا يفعلونه، وهذه الدلالة ظاهرة في قوله (لَا يَتَنَاهَوْنَ)، و(فَعَلُوهُ)، وعليه يكون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية كبيرة بدفع العذاب عن العباد يوم القيامة.

خامساً: من صفات النبي –صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:157].

تحدث أبو حيان في الآية الكريمة عن أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات النبي– صلى الله عليه وسلم – قال أبو حيان: إنَّ جملة (**يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ**) هنا إمّا أنَّ تكون حالا من يجدونه، فتكون هنا مقدرة في موضع حال، أو أن تكون وصفًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فيكون النبي الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

وقال ابن عباس وعطاء: (**يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ**)، أي بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الرحم، وقال مقاتل: الإيمان، وقيل الحق، وقال الزجاج: كل ما عرف بالشّرع، و(**ٱلْمُنكَرِ**) قال ابن عباس: عبادة الأوثان وقطع الارحام، وقال مقاتل الشرك، وقيل الباطل، وقيل الفساد ومبادئ الأخلاق، وقيل القول في صفات الله بغير علم، والكفر بما أنزل، وقطع الرحم والعقوق (الأندلسي، 2010، صفحة 401/4).

ورجح أبو حيان: أن الآية تتحدث عن الرسول –صلى الله عليه وسلم–، والتقدير الأول: أنَّه وصف بذلك لأنَّه النبي الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والتقدير الثاني: أنَّه أعلم الناس بالمعروف والمنكر، وعليه وصف بذلك الوصف.

وقال الزمخشري: (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ): أي الَّذي نخصص له كتاباً. وهو القرآن، وهو (النبـــي) أي صاحب المعجزات، (ٱلَّذِى يَجِدُونَـهُۥ) يجد نعتاً لأولئك وهم الّذين اتبعوا الرسول مـــن بنـــي اســـرائيل. وقيل الذي (يَجِدُونَـهُۥ)، نعته وصفته، وهي مذكورة في الكتابين وقوله (يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْـرُوفِ) استئنافا، ويكون المعنى أنه يأمرهم بالمعروف، وعليه يكون الأمر بالمعروف من صفاته التي ذُكرت في الكتابين (الزمخشري، 2009، الصفحات 390-397).

ويرى الباحث: على التقديرين فإنَّ الآية تتحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو متّصفٌ بهـــذه الحال على الدوام في جميع أحواله، وهو موصوف أيضاً بهذه الصّفة، فيكـــون التقـــدير الأول: يـــأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كلّه، والتقدير الثاني: أنَّه موصوف بذلك لأنه أعلـــم النـــاس بـــالمعروف والمنكر، وعليه وجب اتباعه.

وإتباع الرسول يكون بالاقتداء به اعتقادًا وقولاً وفعلاً، وجمع الله بين الرسالة والنبوة؛ لأنّ الرسالة أعظم من النبوة، وقدم الرسالة على النبوة؛ لأنَّها أعم.

وقال الأزهري: قيل للنبي الأمي؛ لأنّ أمة العرب كانت لا تقرأ ولا تكتب، وكانت هذه إحدى معجـــزات هذا النبي؛ لأنهُ قرأ عليهم كتاب الله (الواحدي، 2010، صفحة 396/9).

سادساً: في تحذير المؤمنين من صفات المنافقين

قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة:67].

تحدث أبو حيان عن المعروف والمنكر في الآية الكريمة كنوع من فضائح المنافقين والمنافقات، وأنَّهـــم ليسوا من المؤمنين، ثم حذر المؤمنين من صفاتهم.

قال أبو حيان: (بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ)، إن الكلام ليس على التبعيض، وذلك لأنَّه معروف، والمراد بقوله تعالى: بعضهم من بعض في النفاق والحكم والمنزلة، فقد وصفهم بخلاف ما عليه المؤمنون، وهو أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، ثم يذكر أقوالاً عن المفسرين تبيّن معنى المعروف والمنكر (الأندلسي، 2010، صفحة 253/5).

ورجح أبو حيان: أنَّ الكلام ليس على التبعيض؛ وذلك لأنَّه ظاهر بأنَّهم ليسوا من المؤمنين، وأنَّ المراد في التبعيض بينهم في النفاق والحكم.

وذكر الزمخشري: (بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ)، أراد نفي أن يكونوا من المؤمنين. وقوله هم الفاسقون: "الكاملون في الفسق والكفر، والتمرد فيه (الزمخشري، 2009، صفحة 440). ورجح ابن عاشور: قوله تعالى: (بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ)، اتصالية دالة على اتصال الشيء، وهو تبعيض مجازي معناه الوصلة والولاية (عاشور، 2000، صفحة 254/10).

واللفتة اللغوية في الآية الكريمة قوله: (بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ)، فالقول الأول: أن تكون من على التبعيض بين المنافقين، والثاني: أن تكون على التبعيض بينهم في النفاق.

يرى الباحث: أنَّها ليست للتبعيض فيما بينهم، بل المراد التبعيض بينهم في النفاق والمنزلة، ودلالات ذلك أنَّ الكلام في الآية الكريمة عن المنافقين، وقوله: (بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ) أي في الصفات المذكورة وهي النفاق، والكفر، وعدم الإيمان، والبخل، والفسق، وقوله: (وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ) أي البخل وعدم الانفاق في سبيل الله.

وفي معاني الآية الكريمة قوله (يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ) وهو الكفر، إلا أنَّ الأعظم هو الاستهزاء بالرسول الكريم، وقوله: (وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ) وهو الإيمان، إلا أنَّ الأعظم هنا هو عدم الإيمان مع الرسول، وقوله: (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) أي البخل بالواجب.

سابعاً: في تحقيق الولاية بين المؤمنين

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[التوبة:71].

قال أبو حيان: قوله تعالى (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ) في المؤمنين مقابلة لحال الكفار في قوله سابقاً (بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ)، وهذا "يدل على أنَّ نفاق الاتباع وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر. وسبب مقتضي الطبيعة والعادة. إمّا الموافقة التي حصلت بين المؤمنين لا بسبب الميل والعادة، بل بسبب المشاركة في الاستدلال، والتوفيق، والهداية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والولاية ضد العداوة". ثم يصف حال المؤمنين في الآية الكريمة (الأندلسي، 2010، صفحة 71/5).

ثم يشرح ما يميز المؤمنين عن المنافقين، فالمنافق يأمر بالمنكر، وينهى عن معروف، ولا يقوم إلى الصلاة إلا وهو كسلان، ويبخل بالزكاة، ويتخلف بنفسه عن الجهاد، وإذا أمرهُ الله تخبط وعارض. والمؤمن ضدٌ ذلك.

قال الزمخشري: (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ): فيه مقابلة لما سبق في حال المنافقين (بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ). وقوله (سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ) تفيد وجود الرحمة وتأكيد الوعد (الزمخشري، 2009، صفحة 1235).

وقوله تعالى: (بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ) أن المؤمنين والمؤمنات على السواء، فلا يقلد أحدهم الأخر ولا يتبع له، والإشارة هنا أن الصفة الجامعة ولاية الاسلام (عاشور، 2000، صفحة 262/10).

وظاهر القول: المراد من ذلك نسبتهم إلى بعض بالولاية، ووصفهم بأولئك بيان لنسبة الترابط فيما بينهم من الولاية والمساعدة والنصرة.

والسين في (سَيَرۡحَمُهُمُ)، كما قال ابن عطية: داخلة في وعد الرحمة، ومهلة لتتنعم النفوس برجاء الله وفضله (الأندلسي، 2010، صفحة 71/5).

وذكر الزمخشري: أنّ" السين مفيدة وجوب الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد. وكلام الزمخشري فيه زاوية خفية من الاعتزال؛ حيث يريد الاشارة إلى أنَّ الله عز وجل يثيب الطائع، كما أوجب عقوبة المجرم.

ورجح أبو حيان: أن مدلول السين ليس للتوكيد، بل للاستقبال فقط.

يرى الباحث: المراد من ذلك نسبتهم إلى بعض بالولاية، فقد جعل الله المؤمنين والمؤمنات (الذكور والإناث) ينتمون إلى بعض وينصرون بعضهم، ووصفهم (بأولئك) بيان لنسبة الترابط فيما بينهم، وهو ما له دور كبير بوصفهم خير أمةٍ في قوله (كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ). وإنَّ حرف السين في قوله تعالى (سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ) يفيد الاستقبال، وذلك لأنَّ دخول السين على الفعل المضارع يفيد حدوث الفعل في المستقبل.

ثامناً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزمِ الأمور

قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان:17].

ذكر أبو حيان أن ذكر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في هذه الآيات جاء مقصـــودًا مـــن حيـــث الترتيب، فبدأ بالصلاة لأنَّها حلقة الوصل وأشرف العبادات، ثم نبَّه بعد ذلك، على الأمـــر بـــالمعروف، والنهي عن المنكر النابعين من إقامة الصلاة، وأنكر المنكر تركه، ثم ذكر بعد الأمر بالمعروف والنهـــي عن المنكر الصبر، وهذا بسبب ما يترتب على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أذى كبير مـــن الناس كما كان حال الأنبياء عليهم السلام، والصالحين من العلماء والدّعاة لذلك ختم الآية ببيان أنَّ العمل بذلك من عزم الأمور (الأندلسي، 2010، صفحة 183/7).

ورجح أبو حيان أن الترتيب في الأوامر والنواهي في هذه الآية جاء مقصودًا، مـــن حيـــث الانســـجام والعلاقة التي تربط الأولى في الثانية في الثالثة ... من حيث المعنى.

وتحدث الواحدي في الآية الكريمة عن معاني الآيات حيث قال عن ابن عباس ومقاتل قولـــه: (يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ) الإيمان والتوحيد بالله. وقال غيرهما الأمر بالطاعة واتباع الأوامر. وقوله (والمنكر) عند ابن عباس: الشرك نفسه. وعند مقاتل: الشرك الذي لا يعـــرف. وقولـــه (وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ): عند ابن عباس ومقاتل: الصبر على ما أصابك بســـببهما. وقولـــه مـــن (عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ) إشارة إلى الصبر. ورجح الكلبي: إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر (الواحـــدي، 2010، صفحة 112/18).

والظاهر: لا خلاف في ذلك. فاللفتة اللغوية في هذه الآية هو ترتيب الأوامر والنواهي، والعلاقـــة فيمـــا بينها من حيث المعنى، فقد بدأ بالصلاة ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم الصبر، ثم ختم ذلـــك ببيان منزلة ذلك، وقوله من (عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ) لا خلاف بين قول ابن عباس ومقاتل، وحقيقة الأمر هي إشارة إلى الصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معًا.

استناداً إلى ما سبق إدراك أبو حيان عظم شأن منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال حديثه عن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنَّ الاختلاف القائم على كيفية أداء هذا الفرض، إذ رجح أبو حيان أنَّه فرض كفاية وهو ما رجحه الباحث أيضا.

وتناول أبو حيان الحديث في أغلب الآيات عن معاني المعروف والمنكر، ورجح أبو حيان في أغلب الآيات على أنَّ المقصود بالمعروف والمنكر هو العموم، أي كل ما أمر به الشرع، والمنكر كل ما نهى عنه الشرع. وهو ضد المعروف.

ثم تطرق أبو حيان للحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لإظهار أهمية هذا الأمر، وذكر أبو حيان أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ في خيرية هذه الأمة، ثم أنَّه سببٌ في تحقيق الفلاح والنجاح، ومن الأسباب التي تؤدي إلى كسب الأجر العظيم، وتحقيق الولاية بين المسلمين، وأنَّه من صفات النبي.

وأخذ أبو حيان الحديث إلى وجوب اشتراك العصاة في إنكار المنكر، ثم رجح أنَّ عذابهم مضاعف بسبب فعل المعصية، والتجاهر به، وعدم النهي عنها.

وأشار أبو حيان إلى أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ في كشف فضائح المنافقين والمنافقات، ثم حذر المؤمنين من صفاتهم.

وختم أبو حيان حديثه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنَّه من عزم الأمور، ثم أنَّه وجب على الداعي الصبر على ما اصبه بسبب دعوته.

الفصل الثاني

صفات الداعية في الإسلام

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 33].

ذكرتُ سابقاً أنَّ الدعوة تعني العلم الَّذي تعرف به كافة المحاولات الفنية المخصّصة لإعلام وإشعار الناس أنَّ الدِين الإسلامي وما يتضمَّنه من عقيدة، وشريعة وإخلاق وغيرها من الأركان الراميــة لِهــذا الدِين.

والمقصود بالدعوة: هي الترغيب وحث الناس إلى الله، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:108]. والمقصود بالدعوة إلى الله أي الدعوة إلى دينهِ وهو الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:19]. الَّذي جاء به سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – من ربهِ سبحانه وتعالى (زيدان، 2002، صفحة 5/1)

فضَّل الله سبحانه وتعالى الناس وأنعمَ عليهم بنعمٍّ كثيرةٍ، ثم خصّ المسلمين بنعمة الإسلام الّتي تعد من أجل النعمّ، فكان من الضروريّ على المسلمين شُكر الله سبحانه وتعالى على هذه النعمة، وذلك عن طريق الدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما جاء في سورة البقرة قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:285].

وللدعوة إلى الله أهمية كبيرة، وأصل جليل، ومكانة كبيرة، ولا سيما أنَّ بعضاً من أهل السلف الصالحين وعلماءِ هذه الأمة جعلوها ركناً من أركان هذا الدين القيم، وتجدر الإشارة أنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل

رُسُلَه – رضوان الله عليهم – من أجل هذه المهمة العظيمة، ثم أضحت مهمة الصحابة والتابعين من بعدهم – رضوان الله عليهم –. وفي هذه الأيام يحرص العلماء وطلاب العلم على دعوة الناس إلى النور واخراجهم من الظلمات، وذلك تطبيقاً لقول الله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة:257].

وللداعي إلى الله صفات وجب على من أراد أن يدعو إلى الله، ومن أراد أن يحمل لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتحلى ويعمل بها، منها ما ذَكرها الله في محكم التنزيل، ومنها ما ذُكرَ في السنة النبوية الشريفة؛ لذلك جعلتُ الحديث في هذا الفصل في بيان صفات الداعي في القرآن الكريم، ثم صفات الداعي في السنة النبوية الشريفة، ثم صفات الداعي عند أبي حيان.

المبحث الأول: صفات الداعي في القرآن الكريم

الدّاعي: هو الشخص المكلف بالدعوة إلى الله والدين الإسلام، وقد جعل الله له صفاتً تعينه على هذا التكليف، فكان لا بد من التعريف به، وبيان الصفات التي يحتاجها لإداء هذه الأمانة، التي تعد مهمة الرُسُل من قبل.

أولًا: التعريف بالدّاعي

الدّاعي: "هو المكلف شرعاً بالدعوة إلى الله" (زيدان، 2002، صفحة 305).

وقيل هو: "هو القائم بالدعوة، واسم فاعل من دعا يدعو، وتأتي الهاء في آخره للمبالغة، فقيل عمن عرف بالدعوة (داعية)" (البيانوني، 1995، صفحة 40).

ونحن نستطيع أن نستنتج تعريف الداعي من خلالِ التعريفين السابقين بالإضافة إلى تعريف الدعوة وهو: الشخص المكلف بتبليغ الناس الدين الإسلام وتعليمهم ما يحتويه هذا الدين من عقيدة وشريعة وإخلاق. ويشتمل على من عمل بها كلها، أو من عمل بواحدة منها.

ثانيًا: صفات الداعية في القرآن الكريم

1. الإيمان بما يدعو إليه

يقصدُ بالإيمانِ: هو إدراك الداعي الّذي يدعو إلى الإسلام أنَّ الدعوة إلى الله حق خالص، وأنّ الله الّـذي هداه للدعوة إليه، وما دون ذلك جهل وضلال (زيدان، 2002، صفحة 333).

وتأسيساً على المصطلح السابق، ندرك أنَّ الإيمان بما يدعو إليه متمرس بأهمية اليقين الداخلي للـداعي، إذ أنَّ الدّاعي الحقيقي يصبح من المسلمات لديه أنَّ الدعوة من الله ولا شك فيها، ولا يقبل فيها اي نقاش أو جدال.

والداعي المتيقن بدعوته، والناظر لحاجة الناس إلى هذه الدعوة، ويجعلها مهمة رئيسة لا يتهـاون بهـا، نجح بقدر يقينه بدعوته، والمسلم الناظر إلى دعوته على أنَّها ثانوية يتهاون بها، فشل وضلَّ بقدر ضعف يقينه بدعوته (البيانوني، 1995، صفحة 115).

ومـن الناحيـة اللغويـة: قـال تعـالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف:108].

يقول البغوي: (قُلْ) المقصود محمد – صلى الله عليه وسلم – (هَٰذِهِۦ) أي الدعوة الّتي يدعو بها محمـد (سَبِيلِىٓ) أي سنتي ومنهاجي، وقال مقاتل: دينـي، (أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) أي يقـين، (وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى) كل من آمن وصدق بمحمد (البغوي، 1989، صفحة 284/4).

جاء في كتاب فتح القدير: قال ابن عباس: (سَبِيلِىٓ) أي دعوتي، وقيل أمـري ومشـيئتي ومنهـاجي، والبصرة: هدى (الشوكاني، 2007، صفحة 717/13).

والظاهر: في (سَبِيلِيٓ) منهاجي، وذلك لقول الله تعالى في آية أخرى:﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾[الفرقان:27].

يرى الباحث: في قوله تعالى أنَّه تم المعنى والكلام عند قوله (أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ) ثم استئناف الكلام بقوله (أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي) وهذا يحمل دلالتين الدلالة الأولى، حث الله سبحانه وتعالى لمن أراد الدعوة إليه بالاقتداء بالنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – والإيمان التام بما يدعو إليه، والدلالة الثانية: أنَّ الصحابة والتابعين الَّذين ساروا على نهج النبي كانوا على إيمان تام بما يدعون إليه.

وبكلا المعنيين نستنتج أنَّه من الضروريّ على من أراد الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون على إيمان تام بِما يدعو إليه؛ حتى ينجح بقدر يقينه بهذا الإيمان.

2. يقين الدّاعي بالله

صرح الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بوحدانيتهِ حيث قال تعال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾[الصافات: 4]. ثم دافع الله سبحانه وتعالى عن وحدانيتهِ عندما قال:﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل:51].

والأصل بالداعي أن يكون موجهاً للخير، وهاديًا نحو الهدى، وهدفه الرئيس إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم، حتى يهدي الناس إلى ربهم وتحقيق الفلاح بالدنيا والآخرة، وفي هذا الإطار وجب على الداعي أن يكون على صلة بالله، وأن يجعل يقينه بالله ويتوكل عليه حق التوكل حتى ينجح بدعوته، ويكون سبباً بالفوز بسعادة الدارين (غلوش، 1987، صفحة 441).

ونخلص من يقين الدّاعي بما يدعو إليه، إلى ضرورة إخلاص نية الدعوة إلـــى الله ســـبحانه وتعـــالى، والعمل لنيل صحبة الله ورسوله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور والفوز بأعلى الدرجات، والفلاح بالدنيا والآخرة.

ومن الناحية اللغوية: قـــال تعـــالى:﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السجدة:24].

يقول ابن كثير بسبب صبرهم على أوامر الله وترك نواهيه، وتصديقهم بالرُسُل، جعل الله مـــنهم أئِمـــةً. يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وقال سفيان وقتادة: جعـــل الله مـــنهم أئِمـــة بسبب صبرهم على الدُّنيا. وقيل: حصلت الإمامة بسبب يقينهم بالله (بن كثير، 1999، صفحة 371/6).

واليقين: باللغة العلم الَّذي لا شك فيه (البركتي، 2003، صفحة 244). وقيل رؤية العيان بقوة الإيمـــان (المناوي، 1990، صفحة 347).

يرى الباحث: أنَّ الإمامة تحدث بالصَّبر واليقين بهذا الدين، إذ يجب على الدَّاعي اليقين بالله ليكون هادياً إلى الحق، وموجهاً إلى الخير وأمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.

وختم الله الآية بقوله﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة:24]. للدلالة على أن القرآن الكريم أصدق ما يقوي يقين المسلم بالله، فوجب على الداعي أن يكون على صلة بكتاب الله سبحانه وتعـــالى، وإنَّ ابتعَـــدَ عن كتاب الله أو حرف من حروف كتاب الله أو بدل بآيات الله سُلب ذلك المقام.

3. العلم والبصيرة

يعتبر العلم من أشرف الأعمال التي يرغب إليه الراغب، وهو من أفضل الأعمال التـــي يســـعى إليهـــا طالب الجنة ورضى الله، وأنفع ما يكتسبه الراغب؛ لأنّه يثمر بصاحبه، ويزداد فضله عند الله ســـبحانه وتعالى، حيث يعتبر من الأعمال التي تخرج صاحبها من الظلمات إلى النور.

وشرَّف الله العلماء، وفضلهم عن غيرهم من الناس، فجعل العلماء أول من يفهم آياته، وينزلها مكانتها حيث قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:49].

وفضل الله الَّذين يعلمون حيث قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9]. ثم قرن شهادتهم إلى شهادتهِ حيث قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:18]. ورفع الله العلماء درجات حيث قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:11] (العلوي، 2000).

ومن الناحية اللغوية: للعلم اهمية كبيرة حيث قال الله ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:19].

كان مما جاء في كتاب الجملة العربية تأليفها وأقسامها عن سيبويه: "أنَّ العرب قديماً يقدمون الّذي بيانه أهم، والذَي هم ببيانه أعنى، حتى وأن كان جميع الكلام يهمهم ويعنيهم" (السامرائي، 2021، صفحة 41).

وفي الآية السابقة قدم الله عز وجل العلم على العمل، وفي هذا التقديم أهمية كبيرة حتى يعلم الدّاعي كيفية الدعوة والوصول إلى ما يدعو إليه. وهذا فيه شأن عظيم

ويعتبر العلم من أشد الأعمال ضرورة للدّعوة، وخصوصاً أنَّ هذا العمل مرتبط بالله عز وجل، لذلك وجب على الدّاعي أن يكون على علم وبصيرة بما يدعو إليه، وإنّ ترك الداعي العلم كان جاهلاً بما يدعو إليه فيأمر بالمنكر، وينهى عن معروف، ويدعو إلى غير الحق لجهله بها.

4. الوعي والاجتهاد الكامل

والمقصود بالواعي: هو اليقين والادراك التام بما تحتويه الدعوة من الداخل، وما يحيط بها من الخارج، وهي تشمل معرفة الدّاعي بمفهوم الدعوة وأركانها، وواقع المدعووين، والدّعاة، وهذا يساعد الدّاعي بنجاح دعواته من غير تخبط أو نقصان (البيانوني، 1995).

إما الاجتهاد بالدعوة: يطلق بالأساس على ما اعتبره الشارع الوصف في الدليل والحكم عليه. وبعبارة أخرى العلة التي يدور عليها الحكم (أمحزون، 1432هـ، صفحة 34).

وهذا يستند إلى ثلاث نقاط رئيسة:

- تحقيق الدليل: ويقتصر عمل الدَّاعي هنا على تطبيق الدليل تطبيقاً صحيحاً من أجل ذلك لا بد من معرفة الدّاعي بالإحكام الفقهية. مثال: معرفة الدّاعي لِمَ حرمت الخمر؟ وحكم الزاني والسارق، او حكم الدَين وغيرها من الإحكام.
- تنقيح الدليل: وهو ما يدعو إلى إلغاء ما لا يصلح للحكم والتعليل واعتباره ما يصلح.
- تخريج العلة: وهو ما يسمى بالقياس، فالفرع هو المقيس، والأصل هو المقيس عليه، والمناط هو العلة (أمحزون، 1432هـ، صفحة 36).

5. الأسلوب المناسب

يندرج الأسلوب تحت الحكمة، فالدَّاعي إلى الله وجب عليه أن يكون حكيماً، ولديه القدرة على الاستدلال واختيار الأسلوب المناسب لتبليغ الناس ودعوتهم إلى الله، فيضع كل أسلوب في مكانه المناسب؛ للتأثير بالمدعو، وهذا ما يجب على الدَّاعي التمكن منه (البيانوني، 1995، صفحة 161).

ثُمَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269].

والمعروف عند العلماء بنية الأساليب الدعوية جميعها على الحكمة في اختيار الأسلوب المناسب، وعليه وجب على الدّاعي اختيار الطريقة المناسبة للدعوة إلى الله، ومن هذه الطرق التي استخدمها الرسول الكريم الذي يعتبر القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله: أسلوب التدرج بالدعوة، وضرب الأمثال، والترغيب، والترهيب.

وهذه الأساليب لها أثر كبير على الدّاعي أولاً ثم على المدعو حيث: تساعد وتمكن الدّاعي من الدعوة، وذلك من خلال النواحي العلمية والبيانية واللغوية والأخلاقية. وتؤثر في المدعو من خلال قبول الدعوة والدخول إلى الدين الحنيف والفوز والفلاح بالدارين.

وعليه. يجيءُ هذا المبحث محاولةً لمعرفةِ صفات الداعية في القرآن الكريم، وهو ما يسعى إلى الكشف عن مقدار ما يتصدَّى للدعوة، وبالأخص أنَّه يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لذلك جعل الله له صفات ذكرها في كتابه العزيز، ليكون نموذجًا يحتذى به في دعوته.

وحقيقة الأمر أنَّ إدراك هذه الصفات في القرآن الكريم مهمة صعبة، وتحتاج وحدها إلى بحث محكم، إلا أنَّني حصرتُ هذه الدراسة بأهم الصفات التي يحتاجها الداعي في دعوته، وهي الإيمان بما يدعو إليه، ويقين الداعي بالله، والعلم والبصيرة، والوعي والاجتهاد، والأسلوب المناسب.

ولا بدَّ من أن ننوه إلى أنَّه هنالك صفات أخرى لا تقل أهمية عن الصفات السابقة، منها الصبر، والمعرفة بأحوال المدعووين، والرفق واللين، وغيرها...، وهذه الصفات سنتحدث عنها بالتفصيل بالمبحث الثاني، والثالث من هذا الفصل.

المبحث الثاني: صفات الداعية في السنة النبوية الشريفة

بعد أن فرغتُ من ذكر الصفات التي وجب على من أراد أن يدعو إلى الله، والإثمار بالأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم، وجب أن نذكر الصفات التي دعا الرسول الصحابة الكرام ومـــن معهم من الدعاة للتحلي والعمل بها في السنة النبوية الشريفة.

وللسنة النبوية الشريفة أهمية كبيرة في الدين الإسلامي، فقد جاءت موضحه ومبينة للشريعة الإســـلامية، ثمَّ أنَّنا نستنبط منها أحكامنا التفصيلية، وفيها سيرة الأنبياء والصحابة الكرام- رضوان الله عليهم-.

ثمَّ للسنة النبوية دور كبير في الدعوة إلى الله تتسنى من خلال معرفة الداعية وفهمـــه لحيـــاة الرســـول الكريم، وكيف رتب الأمر للدعوة إلى الله من خلال المنهج والأسلوب المناسب.

ومعرفة الداعية لصفات المدعووين وأحوالهم وكيفية التعامل معهم، وفق تجـــارب الرســـول الكـــريم – صلى الله عليه وسلم -.

وإيجاد الداعية دستوراً كاملاً لأحوال الدعوة، من معرفة، وفهم، وأهمية، ومنهج، وأســـلوب، وصـــفات، ووسائل.

والدعوة إلى الله مهمة الرُسل- رضوان الله عليهم- ووظيفتهم التي بعثوا من أجلها، فهم دعـــاة الحـــق، والمأمورون بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى الله، ومهمة خير البشر الأولى ســـيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي وضعَ صفات معينة وجب على الداعية أن يتحلى ويعمل بها. ومن هذه الصفات:

1. إخلاص النية لله:

قال رسول الله: "يا أيها الناس، إنما الأعمال بالنيَّة، وإنما لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن هاجر إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (البخاري، 1993، ح:6553).

(يا) حرف نداء، استخدمه النبي للفت انتباه الناس لسماع خطابه. وقوله الناس أي وجه الرسول الكريم الخطاب لعامة الناس أي للمؤمنين والكافرين.

وحرف الجر (من) يستخدم لمعانٍ كثيرة منها للتبعيض وبيان الجنس وابتداء الغاية والتعليل وغيرها.

قال السامرائي: إنَّ حرف الجر (من) يستخدم للغاية، وهي غير ابتداء الغاية (السامرائي، معاني النحو، 2020، صفحة 90/3). وجاء في الكتاب:" رأيته من ذلك الموضع " أي جعلته مبلغ رؤيتك (سيبويه، صفحة 308/2).

وفي هذا الحديث الشريف أراد النبي – صلى الله عليه وسلم – أنَّ يبين أنَّ الأعمال بالنيَّات، فمن شروط العبادات وجود النيَّة السديدة، قال الرسول "لكل امرئ ما نوى".

والأعمال تعود على المسلم وفق غايتهُ من ذلك العمل فمن كان قصده بعمله الله ورسوله كان له ما نوى، وفلح في الدنيا والأخرة، ومن كان يقصد بعملهِ غير ذلك كان له ما نوى ولا أجر له.

وإخلاص النيَّة هي النجوى بين الداعية وربه، أي على الداعية أنَّ لا يطلب ثواباً من عند غير الله، ولا يصرّ عليه إلا من الله سبحانه وتعالى، فمن كانت نيته لله فهي لله ومن كانت نيته لغير الله فهي لسواه. وللحديث الشريف منافع أخرى:

إنَّ هذا الحديث أصل جليل وقاعدة مهمة من قواعد الشريعة الإسلامية، ففيه تعليم الرسول الكريم الصحابة والتابعين ما ينفعهم في الدنيا والآخرة. واستخدام النبي أسلوب ضرب الأمثال لبيان وتوضيح هذا الأمر للصحابة الكرام.

وفي هذا الحديث دليل واضح على أهمية إخلاص الدعاة النيَّة لله سبحانه وتعالى، وضرورة تحديد الأهداف والغايات من دعوتهم، واستخدام الأسلوب المناسب لتحقيق ذلك.

2. القدوة الحسنة

قال النبي: "إنَّ أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هديُ محمد" (البخاري، 1993، ح: 5747).

والمعروف أنَّ (إنَّ) حرف توكيد، يأتي لتأكيد مضمون الجملة. وجاء حرف التوكيد هنا لتأكيد أن أحسن الحديث هو حديث الله، وأحسن الهدي هو هدي محمد –صلى الله عليه وسلم–.

والهدي: من (هدى): قال ابن فارس (الهاء والدال والحرف المعتل) أصلان صحيحان، الأول: للإرشاد، والثاني: بَعثة لَطَفٍ (فارس، 1979، صفحة 43/6). والمقصود بالأول: الهداية والإرشاد إلى الطريق الصحيح، والآخر ما قدمته من لَطَفٍ.

وفي الحديث الشريف منافع منها:

بيّن الحديث الشريف أنَّ القرآن الكريم أفضل الكتب وأنفعها للداعية وغيره من البشر، وأنَّ أفضل طريق هي طريق محمد.

وقف الحديث الشريف على أهمية اقتداء الداعية بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–، فالرسول كان خيرٌ البشر، وأفضلهم خلقاً، وأوسع البشر علماً، وقد عرف بعدل السيرة.

ظهر في الحديث الشريف أنَّ أفضل الأديان هو دين محمد، لذلك أمر الدعاة بالدعوة إلى هذا الدين.

وفي الحديث الشريف حض النبي الدعاة على اتباع دينه، وتبليغ الناس فحوى هذا الدين، وبيان ما فيه من عقيدة وشريعة وأخلاق.

3. تبليغ الدعوة

قال رسول الله: "بلغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عني بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار" (البخاري، 1993، ح: 3274).

قال ابن فارس: بلغ (الباء، واللام، والغين) أصل واحد، وتدلُّ على الوصول إلى الشيء أو المراد" (فارس، 1979، صفحة 301/1).

ولو: (لو) شرطية جاءت لربط السببية والمسببية بين الجملتين (الأنصاري، 1964، صفحة 238/2). وجاء في معاني النحو أنَّ (لو) من أدوات الشرط. التي جاءت لمعنى التقليل (السامرائي، 2020، صفحة 105/4).

وقول النبي: (حدثوا عني بني إسرائيل) أي لا حرج على الداعية من ذكر ما قام به بنو إسرائيل من الكذب على الرسول الكريم.

وختم النبي الحديث (من كذب عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار) فيه بيان على أنّه من كذب على الرسول متعمداً سيدخل النار خالداً فيها بسبب كذبه.

والمراد بالحديث الشريف قيام الداعية بأخبار الناس فحوى هذا الدين وبكل ما جاء به سيدنا محمد.

والاعتماد على آية واحدة بالدعوة قليل جداً، خصوصاً إذا كان المدعو ناكراً لهذا الدين، إلا أنَّ الرسول الكريم أراد أن لا نقلل من قيمة الآية، وأمرنا بالتبليغ بها.

حثَّ النبي الداعية على تبليغ دعوته، وفق قواعد الشريعة الإسلامية، شرط التحقق من صحة ما جاء به.

اقتصر النبي الحثَّ على تبليغ الدعوة ولو بآية واحدة فيه دليل على أهمية قيام الداعية بالإسراع بتبليغ ما وقع عليه.

توضيح النبي للداعية أنّه لا حرج عليه من ذكر أحوال بني إسرائيل، من أجل توضيح ما كانوا عليه من كذب ونفاق.

ترهيب النبي للداعية من الكذب على الله ورسوله، ومن يعمل ذلك أوجب على نفسه دخول النار.

وقال النبي: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لئن يهدي بك الله رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم" (مسلم، 1955،ح: 2406).

من المعروف باللغة العربية أن فعل الأمر يدلُّ على طلب القيام بالفعل، ويصاغ فعل الأمر على وزن (افعل) للمخاطب.

وأضاف السامرائي يمكن لفعل الأمر أنَّ ينبثق من معناه الأصلي إلى المجاز، نحو الإباحة، والدعاء، والتهديد، والتوجيه والإرشاد، الإكرام، والإهانة، وغيرها من المعاني (السامرائي، 2020، الصفحات 4/33-34).

وفي الحديث الشريف جاء فعل الأمر بمعنى التوجيه والإرشاد، فالرسول الكريم أراد توجيه الصحابة إلى ضرورة الدعوة إلى الله قبل القتال، وإخبار الكافرين ما يجب عليهم، وفيه دليل على أهمية الدعوة قبل القتال.

قال النووي: في الحديث الشريف الدعاء إلى الإسلام، قبل الجهاد، وأنَّ كان هذا القوم من الأقوام التي لم تبلغهم رسالة الإسلام وجب إنذارهم.

وقول النبي: (فوالله لئن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم) وحمر النعم هي الإبل الحمر وهي من أنفس وأغلى الأشياء، التي كان العرب قديما يضربون المثل بها.

واستخدام الرسول أسلوب ضرب الأمثال لتقريب المعنى للصحابة الكرام، وبيان أهمية الدعوة إلى الله.

4. الصدق

قال النبي: "إنَّ الصدق يهدي إلى البر وأنَّ البر يهدي إلى الجنة، وإنَّ الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وإنَّ الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً" (البخاري، 1993، ح: 5743).

ذكر العلماء سابقًا أنَّ حرف (إنَّ) من الأحرف المشبهة بالفعل التي تأتي بمعنى التوكيد، وجاء عندهم أيضًا أنَّ (إلى) أحد حروف الجر التي تأتي بمعنى انتهاء الغاية.

وفي الحديث الشريف أراد النبي التأكيد على أن الصدق يهدي إلى البر، وأنَّ الرجل الصادق يكتب عند الله صديقاً، ثمَّ التأكيد على أنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وأنَّ الكاذب يكتب عند الله كذاباً.

وذكر النووي: أنَّ الصدق يؤدي إلى البر، أي العمل الصالح الصافي من كل منبوذ ومدحور في الشريعة الإسلامية، وأنَّ الكذب يؤدي إلى الفجور، والفجور هو الابتعاد والميل عن الاستقامة والطريق الصحيح (النووي، 1994، صفحة 241/16).

وما ينطبق على الرجل ينطبق على الداعية، فتحلي الداعية بالصدق يؤدي إلى البر أي العمل الصالح، الَّذي يساعدهُ على النجاح في إتقان دعوته؛ وذلك سببٌ في الفوز والنجاح في الدارين.

والداعية الصادق يمتلك ثقة كبيرة في نفسه، فلا يخاف مواجهة أحد بما يدعو إليه، بسبب يقينه بصدق ما يدعو إليه.

تعليم النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– للصحابة الكرام والتابعين أهمية التحلي بالصدق ونبذ الكذب، وبيان أجر الصَّادقين.

ضرورة تحلي الداعية بصفة الصدق؛ لأنَّ الصدق من أفضل الصفات وأنبل الأخلاق، وهو سبب بالفوز والنجاح، يساعد الصدق الداعية على إتمام دعوته وإنجاز أعماله على أكمل وجـــه، فالصـــدق يجعـــل السمات الحسنة في صاحبه مما يجعل أقبال الناس لدعوته.

ويعتبر البر جامعاً للخير، وهو أفضل صفات المؤمنين، والفجور الابتعـــاد والميـــل عـــن الاســـتقامة، والإنسان الصادق ينال الأجر والثواب العظيم من الله سبحانه وتعالى.

5. الصبر

قال النبي: "قد كان من قبلكم يأخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضـــع، على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب علـــى غنمـــه؛ ولكنكم تستعجلون" (البخاري، 1993، ح:6544).

استخدام الرسول الكريم أسلوب ضرب الأمثال في تعليم وتصبير الصحابة الكرام في سبيل الدعوة إلـــى الله؛ لِمَ لهذا الأسلوب من أهمية كبيرة ومنافع وتأثير على الآذان وتقريب المراد للأذهان.

علق ابن قيم الجوزي على أسلوب ضرب الأمثال:" لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهـــن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فقد يكون أقرب إلى تعلقـــه وفهمـــه وضـــبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإنَّ النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر مـــن الغربـــة والوحدة وعدم النظير. ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثلـــه مـــن الحق، أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال أزداد المعنى ظهورًا ووضوحًا، والأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهـــي خاصة العقل ولبه وثمره" (القريشي، 1997، صفحة 61).

أسلوب القسم:

قال السامرائي: الغاية من أسلوب القسم توكيد الكلام وتقويته. فإذا أقسم القائل على شيء معين فقد أكده (السامرائي، 2020، صفحة 18/4).

ومما يزيد قوة القسم بالحديث الشريف هو استعمال النبي أسلوب القسم مع أشهر حروف القسم وأكثرها استعمالاً.

والمعروف أنَّ لام الأمر تدخل على الفعل المضارع، وهي تدلُّ على طلب حدوث الفعل في المستقبل، ومن معانيها أيضا الأمر، والدعاء، والتهديد، والخبر.

وفي الحديث الشريف جاءت بمعنى الأخبار، فالنبي يخبر الصحابة الكرام الَّذين كان بلاؤهم كبيراً، ومحنتهم عظيمة، إنَ الأنبياء ومن كان معهم في الأمم السابقة، كانوا يعذبون أيضا، إلا أنّ ذلك لم ينقص من عزيمتهم شيئاً، بسبب قوة إيمانهم بالله ورسُله، وحفظهم لهذا الدين، وتصديقهم بالأنبياء الصالحين.

حثّ النبي الدعاة على الصبر في سبيل إعلان دين الحق، وفيه دلالة على صدق النبي، بسبب حدوث ما قال عنه النبي في هذا الحديث الشريف من انتشار الدين الإسلامي، وانتشار الأمان في بلاد المسلمين، تذكير النبي للصحابة بما كان يتعرض لهُ الدعاة من قتل وتعذيب، في سبيل الدعوة إلى الله.

وقد ظهر من خلال البحث أنَّ للسنة النبوية الشريفة أهمية كبيرة في سبيل الدعوة إلى الله، وقد تسنى ذلك من خلال ذكر سيرة النبي، وفهم الداعية لحياة النبي وكيف رتب الأمر بالمنهج والأسلوب المناسبين.

ساعدت السنة النبوية الداعية في دعوته من خلال معرفة المدعووين وأحوالهم، فقد وجد الداعية بالسنة النبوية دستوراً كاملاً يعتمد عليه في دعوته.

ذكرت سابقاً أنَّ الحديث عن صفات الداعية مهمة صعبة تحتاج وحدها إلى بحث محكم، ولذلك حاولتُ جاهداً أن أتجنب ذكر الصفات التي وردت في المبحث الأول من هذا الفصل، وجعلت الدراسة في إخلاص النية لله، والقدوة الحسنة، وتبليغ الدعوة، والصدق، والصبر.

المبحث الثالث: صفات الداعية في تفسير البحر المحيط

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران:110]. رجح أبو حيان في حديثه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنَّ هذه الصفات هي التي تُميزُ أمة محمد عن سائر الأمم، ثم رجح في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:104]. على ضرورة قيام جماعة من المؤمنين (الَّذين يعرفون المعروف والمنكر) بأنَّ يكون هنالك أمة مهمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثُمَّ عزز ذلك القول بإظهار ذم الله سبحانه وتعالى للأقوام الَّذين لم يقوموا بهذا الأمر.

أنَّ الداعية الناجح في دعوته، هو ذلك الداعية الملتزم في دعوته، المخلص نيته لله سبحانه وتعالى، والمتخذ من الرسول قدوة في دعوته، المنضبط بالعدة والمقومات التي تجعلهُ ناجحًا ومعتدلًا في دعوته.

ومعرفة الداعية لهذه الصفات والمقومات تعتبر من أهم المهمات في رحلة الدعوة إلى الله، كي ينجح في دعوتهِ، وينال رضى الله سبحانه، وتعالى، ويفوز بالدارين.

وقد جمع أبو حيان ما يحتاج إليه الداعية من صفاتٍ ومقوماتٍ في سبيل نجاح دعوته، لذلك ركزتُ في هذا المبحث على إظهار الصفات التي يحتاجها الداعية، وكيف ظهر أثر هذه الصفات عند أبي حيان، مبيناً بذلك صفات الداعية الإيمانية والعلمية والفقهية.

أ. **صفات الداعية الإيمانية عند أبي حيان**

1. **التقوى**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:70-71].

يؤيد أبو حيان في تفسير الآية الكريمة قول الزمخشري؛ حيث رجح الزمخشري أن تكون هذه الآية مكملة للتي قبلها. واعتمدت الآية السابقة على النهي لما يؤذي رسول الله. وجاءت هذه الآية باتقاء الله وحفظ للسان وحمايته؛ ليستطيع الداعية الأمر والنهي، فيقوم على (اتباع النهي ما يتضمن الوعيد) (واتباع الأمر الوعد البليغ) (الأندلسي، 2010، صفحة 234/7).

والظاهر: هو نهي الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بأن يكونوا مثل الَّذين آذوا رُسُلهم، ثُمَّ توجه الأمر إليهم بالتقوى والقول السديد.

وقيل: "أي في كل ما تأتون وتذرون لا سيما في ارتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤذي رسوله- صلى الله عليه وسلم- (وقولوا) في كل شأن قولا سديداً أي قاصداً إلى الحق" (السعود، صفحة 117/7)

ومن الناحية اللغوية

بدأ الله سبحانه وتعالى بنداء (الَّذين آمنوا) للفت انتباه المؤمنين للأصغاء إليه. ووصف الله لهم بالَّذين آمنوا أي لأنَّ الإيمان أساس ما سيؤمرون به هنا. ثُمَّ أخرج الله الذّين آذوا رسول الله قاصداً بسبب نفاقهم وكفرهم.

وقدم الله سبحانه وتعالى التقوى على القول السديد؛ لأنَّ خطاب الأمر متضمن ما سيؤمرون به، والقول السديد من خصال التقوى، والتقوى من خصال الإيمان، أي أنَّ ترتيب الآية جاء مقصوداً من العام إلى الخاص.

ويستفاد من الآية السابقة:

أوجب الله سبحانه وتعالى التقوى على جميع العباد، ثُمَ أوصى الأنبياء- رضوان الله عليهم أقوامهم بالتقوى.

وعلى الآمر والناهي تقوى الله ليقع عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، فالتقوى تساعد الداعية على حفظ لسانهِ، وتوسيع بصيرته، وترك الأذى، فيبعد ما في قلبه من أذى وحقد وغل، فيزداد إيمانه بنجاح دعوته، وجلب محبة الله سبحانه وتعالى للعباد، وهي بعون الله ونصره.

وجعل الله سبحانه وتعالى ثمرات لمن يتقيه، فقد أوجب الله له الرحمة، والثواب في الدنيا والأخرة، والبشرى بقبول العمل.

2. يخشى الله

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب:38-39].

رجح أبو حيان أنَّ الآية الكريمة نزلت بالأنبياء بدليل وصف الله لهم بالَّذين يبلغون رسالات الله، ثُمَّ رجح أنَّ (ٱلَّذِينَ) صفة لما سبق (ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟) (الأندلسي، 2010، صفحة 228/7).

وظاهر القول عند أبي حيان أنَّ هذه الآية جاءت مكملة للآية السابقة، وقد وصف الله الأنبياء بالتبليغ والخشية.

يرى الباحث: كلام أبي حيان صحيحاً. وذلك أنَّ الكلام في الآيـــة الكريمـــة عـــن ســـنة الله بالأنبيـــاء. والخطاب في الآية الكريمة ليس لجميع الناس، وقد جاء موضحاً أنَّه ليس على النبي حرج فيما فـــرض الله عليه، وهو من سنن الأنبياء السابقين، ووصف الله الانبياء السابقين بالتبليغ والخشية.

ومن الناحية اللغوية: يستخدم حرف العطف (الواو) للجمع المطلق، وقـــول الله (يبلغـــون رســـالات الله ويخشونه)، ليس من الضرورة أنَّ تتقدم صفة التبليغ على خشية الله، فقد تكون خشية الله سابقة للتبليـــغ. وجاء في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: يستخدم حرف العطف (الواو) لإشراك المعطوف علـــى المعطوف عليه مطلقًا (عقيل، 1994، صفحة 198/3).

والمهم في الآية السابقة هو أنَّ من صفات الَّذي يبلّغ رسالات الله أن يخشى الله. ويستفاد من قوله تعالى: على من أراد أن يبلغ رسالات الله أن يخشى الله؛ لأنَّ الخشية من الله تجعـــل الداعيـــة مـــن المتقيـــين المحسنين، وتبعد الداعية من الوقوع في المعاصي والسيئات، وتفتح المجال لإخلاص العمل لله وحده.

ب. صفات الداعية العلمية والشرعية عند أبي حيان

1. العلم عند أبي حيان

- **لا أهمية للعلم قبل العمل عند أبي حيان**

قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد:19].

رجح أبو حيان أنَّ المراد بالآية الكريمة هو استمر على عملك بقول: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ). رفض أبو حيان قول أهل السنة (تقديم العلم على العمل) ثُمَّ قال: إنَّ في الآية الكريمة ما يدل على التأدب والتواضـــع، إذ أمر الله الرسول الكريم بالاستغفار، ومع غيره بالاستغفار لهم (الأندلسي، 2010، صفحة 80/8).

ويؤيد أبو حيان أنَّه جاء في المحرر الوجيز: (فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) أنَّ الخطاب في الآية الكريمة للرسول –صلى الله عليه وسلم– والمراد الدوام والاستمرار على التوحيد. وفي هذا القول ردٌّ على من قال العلم قبل العمل والإقرار. وخالفه في قولهِ أنَّ خطاب الاستغفار لجميع المؤمنين والمؤمنات وليس للرسول فقط (عطية، 2001، صفحة 116/5).

وجاء عند ابن عاشور: قوله (فَٱعۡلَمۡ) كناية لطلب العلم، وفي الآية الكريمة الثبات على الوحدانية والتواضع لله بالاستغفار له وللمؤمنين (عاشور، 2000، صفحة 105/26).

والظاهر: أراد أبو حيان أن يبين لنا أنَّ الخطاب للرسول الكريم، وهو إذا علمت أنَّ التوحيد يؤدي إلى دار السعادة، والنجاة من عذاب الأخرة، والفوز بالدارين فاثبت عليه.

يرى الباحث: أنَّ المراد بالآية الكريمة هو تقديم العلم على العمل، إذ بدأت الآية بأمرين هما: العلم حيث قال (فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ)، ثُمَ جاء الأمر الآخر: وهو العمل بقولهِ (وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ)، وفيه دليل على أنَّ درجة العلم مقدمة على درجة العمل. فلا يصدر العمل إلا من خلال علم ومعرفة، ولا يقدر العمل إلا بالعلم لذلك قُدم عليه.

ثُمَّ أنَّه من المعروف أنَّ العلم الصحيح يؤدي إلى العمل الصحيح، وكيف يعمل العالم من دون علم ومعرفة، فالعلم مصحح للنية الصالحة للعمل، والعلم هو الإدراك النافع في الأمور الدينية والدنيوية.

ولا تكون دعوة الداعية صحيحة إلا إذا بُنيت على علم صحيح، لذلك فإنَّ للعلم أهمية وقدر كبير، ووجب تقديم العلم على العمل؛ لأنَّ الداعية الناجح يحتاج إلى خطة يسير عليها من بداية دعوته حتى انتهاء هذه الغاية.

وقولهِ (وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ) المرجح هو على كل مؤمن أنَّ يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وذلك لأنَّ الاستغفار صدقة، ولا يمكن أنَّ تختص الصدقة بالرسول الكريم فقط.

- **كمال الإنسان بالعلم والعمل عند أبي حيان**

قال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾[الزمر:9]

ذكر أبو حيان أنَّ الآية الكريمة نزلت بفضل قيام الليل، ثُمَّ رجح أنَّ كمال الإنسان باكتمال عِلمه وعَمله، وأنَّ العالم لا يستوي مع غير العالم (الأندلسي، 2010، صفحة 402/7).

يرى الباحث: أنَّ لا خلاف في الآية، حيث أنَّ المراد هو بيان فضل العلماء ومدحهم والثناء عليهم، سواء أكان ذلك بعلمهم بفضل قيام الليل أو فضل شيء آخر كالصلاة أو الصوم أو الدعوة إلى الله.

فالعلم أسمى الفضائل، وأجل المزايا التي يتحلى بها، والعلماء الربانيون هم الدعاة إلى الله، والمسؤولون عن نشر الدين الإسلامي، والذين جهزوا أنفسهم في سبيل خدمة هذا الدين، لذلك أوجب الله مدحهم والثناء عليهم، وتمييزهم عن غيرهم.

2. القدوة الحسنة في اختيار الطريقة والأسلوب المناسب

قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ ﴾[يوسف:108].

قال أبو حيان: أي أبلغهم يا محمد أنَّ هذه طريقي التي سلكتها في دعوتي، ثُمّ فسر الله (السبيل) أي الطريق إلى الله لا إلى غيره، ثُمّ أمر النبي أنَّ يخبر هو ومن معه بالدعوة إلى الله، وأمر أيضاً أنَّ ينزه الله من أي شريك في الملك (الأندلسي، 2010، صفحة 346/5)

يرى الباحث: ركز أبو حيان في حديثه عن الآية الكريمة على إظهار معاني قول الله سبحانه وتعالى، ثُمّ تحدث على أهمية تنفيذ الرسول الكريم لأوامر الله، بأن يخبر عن نفسه ومن معه وأن يدعو إلى الله، ولا شريك لهُ بالملك.

وللآية الكريمة أهمية كبيرة وأسمى من الّتي ذكرها أبو حيان في تفسيره، وهي القدوة الحسنة في اختيار الداعية للطريقة والأسلوب المناسب، والعلم والمعرفة لمن أراد أن يدعو إلى الله، والإيمان التام بما يدعو إليه.

ويستفاد مما سبق أنَّ للعلم أهمية كبيرة؛ حيث يساعد الداعية على اختيار الطريقة والأسلوب المناسب الذي يساعده في سبيل نجاح دعوته.

3. تبليغ الرسالة السماوية

قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣﴾ [طه:43].

رجح أبو حيان أنَّ المقصود بالآية الأولى (ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ) هو تبليغ الرسالة. ثُمّ أظهرَ ذهاب بعض أهل العلم إلى تفسير قوله تعالى بالذهاب إلى الناس أولاً ثُمّ إلى فرعون، وذكر أنَّ سبب الذهاب إلى فرعون بقوله (إِنَّهُۥ طَغَىٰ) أي تجاوز وبالغ حدهُ بالكفر والفساد، غير أنَّه أدعى الربوبية والإلهية (الأندلسي، 2010)

والظاهر في قوله تعالى: هو تبليغ الرسالة السماوية، وهي مهمة الرسول، ومن حمل لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأشار الله سبحانه وتعالى إلى ضرورة تبليغ الرسالة لفرعون؛ بسبب تجاوزه الحد في الكفر والفساد، وادعاء الربوبية من دون الله.

ومن الناحية اللغوية: كرر الله سبحانه وتعالى طلب الذهاب إلى فرعون، وتبليغ فرعون فحوى هذه الرسالة، ولذلك دلالة. قال الواحدي: تكرار الأمر (ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ) جاء للتأكيد على ضرورة الذهاب إلى فرعون. (الواحدي، 2010)

وجاء عند ابن هشام: يدلَّ فعل الأمر على طلب القيام بالفعل، وفي الآية الكريمة دلّ فعل الأمر على طلب الذهاب إلى فرعون (الأنصاري، 2001، صفحة 16).

4. الرفق واللّين

قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:44].

رجح أبو حيان: أنَّ المقصود بالقول اللين هو الكلام اللطيف، وقد أبرز الله صورة ذلك في هذه الآية، ثُمَّ رجح أبو حيان أنَّ القول اللين أحد أبواب الفوز العظيم (الأندلسي، 2010، صفحة 230/6).

وقال الزجاج: (لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ).

(لعل): حرف ترج وطمع. وظاهر القول عند الزجاج: أنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم أنَّ فرعون لا يتذكر ولا يخشى، إلا أنَّ الله أوجب الحجة والبرهان على تبليغ فرعون الرسالة السماوية (الزجاج، 1988، صفحة 357/3).

وأرى: كلام أبي حيان صحيحاً. وأبرز الله ذلك في صورة التشاور عندما تشاور موسى وهارون مع الله. وصورة العرض بأنَّ يعرضا الرسالة السماوية على فرعون.

والعبرة في هذه الآية هي طريقة مخاطبة موسى لفرعون، إذ إنَّ فرعون كان في قمة الاستكبار وادعاء الربوبية، وموسى في قمة التواضع ومع ذلك طلب الله من موسى أنَّ يخاطب فرعون بالملاطفة واللين.

5. الاستسلام لإمر الله

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 33].

رجح أبو حيان: لا أحد أحسن من الَّذي يدعو إلى توحيد الله، ويعمل عملاً صالحاً، ثُمَّ يعلن أنَّه من المنقادين إلى أمر الله والمستسلمين له، والظاهر: هو العموم بكل من يرغب بالدعوة إلى الله. ويؤيدهُ بذلك الحسن ومقاتل وجماعة (الأندلسي، 2010، صفحة 475/7).

وذهب إلى الخصوص ابن عباس ورجح: الرسول – صلى الله عليه وسلم- والَّذي دعا إلى شهادة (لا إله إلا الله)، ورجحت عائشة، وقيس بن أبي حازمٍ، وعكرمة، ومجاهد: إنها نزلت بالمؤذنين: ورجح زيدٌ بن عليٍّ: من دعا إلى الله بالسيف.

ومن الناحية اللغوية:

قال الزجاج: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا). منصوب على التفسير، ويريد بذلك النبي محمد الَّذي دعا إلى توحيد الله (الزجاج، 1988، صفحة 386/4).

وأرى: أنَّ المراد بهذه الآية هم الرُسُل – صلوت الله عيلهم-، ثُمَّ العلماء ومن دعا إلى الخير والهدى (أي العموم بكل من دعا إلى الله).

ومن الأقوال المعروفة عند أهل السنة والسلف (إن العلماء ورثة الأنبياء)، وما ينطبق على العلماء في سبيل الدعوة إلى الله ينطبق على غيرهم.

وفي قول عائشة لبس كبير، إذ أنَّ هذه الآية وردت في صورة فصلت وهذه الصورة مكية، ولم يكن الأذان مشروعاً بالعموم، وإنَّما شرع بعد الهجرة إلى المدينة.

والصحيح أنَّ المراد بالآية هو العموم، والمستفاد من هذه الآية هو استسلام الداعية لإمر الله؛ لأنَّ ذلك يساعده على إتمام دعوته، وشعوره بالأمان؛ لأنَّ الله معه، وعدم الخوف من الكافرين أو الهلاك.

وعليه، أدرك أبو حيان في حديثهِ عن الدعوة إلى الله إلى ضرورة قيام جماعة من أهل العلم (الّذين يعرفون المعروف والمنكر) بالدعوة إلى الله، ثُمّ جعل أبو حبان هذا الأمر سبباً في خيرية هذه الأمة.

ومن أجل ذلك عمد أبو حيان إلى جمع الصفات التي يحتاجها الداعية في سبيل نجاح دعوته، كي يجعل أمام الداعية دستوراً كاملاً من المقومات التي يحتاجها للنجاح في دعوته.

عمد الباحث في هذا المبحث إلى تقسيم البحث إلى صفات الداعية الإيمانية فجعلت من أهم هذه الصفات التقوى؛ لأنَّ التقوى تساعد الداعية على إخلاص عمله لله سبحانه وتعالى، ثُمَّ من هذه الصفات الخشية من الله؛ لأنها تجعل الداعية من المتقين المحسنين.

ثمَّ جعلت القسم الثاني بالصفات العلمية والشرعية، وقد رجح أبو حيان أنَّ كمال الإنسان بالعلم والعمل، وأنَّه لا أهمية للعلم قبل العمل عند أبي حيان، وضرورة اتخاذ الداعية النبي القدوة الحسنة في سبيل الدعوة إلى الله، وحث أبو حيان على ضرورة تبليغ الرسالة السماوية، ثُمَّ الرفق واللين في تبليغ هذه الرسالة، وختم ذلك بضرورةٍ الاستسلام لإمر الله.

الفصل الثالث

فقه الدعوة في تفسير البحر المحيط

من نِعَمِ الله سبحانه وتعالى على الدعاةِ، أن جعلهم الداعين إلى الخير، والآمرين بـــالمعروف، والنـــاهين عن المنكر، ثُمَّ أكرمهم الله أن بيّن لهم الطريقة الصحيحة للدعوة إليه، ومن هذه الطرائـــق: (الحكمـــة، والموعظة الحسنة، والبصيرة).

وقد تطرق أبو حيان للحديث عن هذه الطرائق وفق رُؤية تفسيرية لغوية ونحوية. وسنتعرف من خـــلال هذا الفصل إلى فقه الدعوة في تفسير البحر المحيط.

المبحث الأول: الحكمة في تفسير البحر المحيط

1. معنى الحكمة في تفسير البحر المحيط

ذكر الباحث في التمهيد عدة معان للحكمة كانت قد وردت في المعاجم اللغوية منها: أفضل العلوم، وقيل العدل والعلم، وقيل منع الجهل. وفي الاصطلاح: قيل إتقان العمل والقول (البركتـــي، 2003، صـــفحة 81).

وفي الاصطلاح الشرعي جاء مفهوم الحكمة في القرآن الكريم والسنة النبوية على عدة معان، واختلـــف العلماء في تفسير هذه المعاني، فقيل الحكمة: النبوة، وقيل: القرآن، وقيل: الفهم في الدين، وقيل: النبوة، وقيل: المنطق (القحطاني، 2004، صفحة 23).

ووضع النووي تعريفاً شاملاً وعاماً للحكمة حيث قال: العلم بالأحكام الشرعية التي تشتمل على معرفـــة الله، والمصحوبة بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس (يُنظر إلى التمهيد).

الحكمة عند أبي حيان: فسر أبو حيان الحكمة بعدة تفاسير منها: (بيان الأحكام الشرعية، ووضع الأمور في موضعها الصحيح، والقرآن، وسنن الأنبياء، والنبوة، والصواب في العمل والقول، والعقل، والفهـــم،

والكلام الصواب القريب من النفس، والمنطق الذي يُتعظ به الفهم والاصابة بالقول، ومنها المنطق، الفقه بالقرآن وتعليمه)[1].

يرى الباحث: أنَّ أبا حيان لم يختلف عن المفسرين السابقين للحكمة؛ لأنَّ الحكمة مصدر مشتق من الإحكام، والإحكام هو: الإتقان في العمل والقول، كما أنَّ ما ذكرهُ أبو حيان يعتبر من أصناف الحكمة، فالقرآن حكمة، والنبوة حكمة، والدين حكمة، والأصل بالحكمة منع الجهل أي العلم، والعلم حكمة.

وعند النظر في التعريفات السابقة نجد علاقة قوية فيما بينها فالجميع جعل من العلم والمعرفة والعمل أصل الحكمة.

2. البيان القرآني للحكمة في تفسير البحر المحيط

والمقصود بالحديث هنا هو بيان تصريح الله في كتابهِ الحكيم، للنبي ومن تبعهُ من الصحابة والتابعين ومن أراد أن يحمل لواء الدعوة إليه بالحكمة والموعظة والبصيرة.

قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء:54]

فسر أبو حيان الحكمة: الفهم في الدين (الأندلسي، 2010، صفحة 285/3). وقد ظهر البيان القرآن الخاص بالحكمة في قوله: إنَّ جعل الله الحكمة مقرونة بكُتُبهِ السماوية، وجعل الحكمة الفهم في الدين، وهو ما يحتاجه الداعية في سبيل نجاح دعوته.

يرى الباحث: أنَّ البيان القرآني بالآية الكريمة ظهر من خلال الناحية اللغوية:

[1] وردت مفردة الحكمة في كتاب الله في تسعة عشر موضعًا تقريبًا وهي : سورة البقرة الآيات 269،251،231،151،129، سورة آل عمران والآيات: 164،81،48، وسورة النساء الآيات: 113،54، المائدة: 110، النحل 125، الاسراء39، لقمان 12، الأحزاب:34، ص:20، الزخرف:63، القمر: 5، الجمعة:2.

أم: المنقطعة، وجاءت لفائدة الإضراب عن الكلام، وهي بمعنى (بل)، ويرادُ بها هنا الإنكار. وفي الآية الكريمة جاء الاستفهام بمعنى الإنكار، أي الإنكار على حسدهم، وليس للنفي.

ويراد بالناس هنا النبي. والمعنى: (بل يحسدون النبي)، وقد جعل الله النبوة في أهله (ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ)، والكتاب والحكمة: أي الفقه والفهم.

ودلالة البيان هنا أن جعل الله للنبي الحكمة الّتي هي الفقه والفهم في الدين، وهو ما يحتاجه النبي للدعوة إلى الله، وذكرنا سابقاً على الداعية أن يجعل النبي القدوة الحسنة في دعوته إلى الله، وعليه يكون على الداعية الدعوة إلى الله بالحكمة كما فعل النبي من قبله.

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:269].

فسر أبو حيان الحكمة: بالقرآن، وعلى قول أبي حيان يكون البيان القرآني أن جعل الحكمة مرادفه للقرآن (الأندلسي، 2010، صفحة 334/2).

يرى الباحث: أنَّ البيان القرآني الخاص بالآية السابقة هو: أنَّ الله ربط بين الحكمة وبين الخير الكثير، فجعل الله لصاحب الحكمة خيراً كثيراً، وجاءت هذه الآية بعدما أبان الله الأوامر والأسرار الخاصة بالحكم، ثم جعل هذه الأسرار مخفية إلا لمن أتاه الله الحكمة.

وفي الآية الكريمة تحذير من الغفلة، وتذكير لإصحاب العقول للاتعاظ والموعظة.

3. أركان الحكمة عند أبي حيان

والمراد في هذا المطلب الحديث عن أركان الحكمة، أي الدعائم التي تقوم عليها الحكمة في الدعوة إلى الله، ويعتبر أكمل الدعاة في دعوتهِ هو من كان لهُ منها زادٌ ونصيبٌ وافرٌ.

وفي النظر إلى ما ذكرهُ أبو حيان في تفسيره، أجمعتُ بعض هذه الدعائم التي صرح أبو حيان في تفسير بعضها على أنَّها دعائم تقوم عليها الحكمة، وبعضها الآخر جاء تفسيرهُ ضمنياً يفيد إلى موجبات وأركان الحكمة.

وأركان الحكمة التي ذكرتها هنا هي:

أ. العلم

قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:19].

سبق الحديث عن هذه الآية بالمبحث الثالث من الفصل الثاني، حيث رجح أبو حيان لا أهمية للعلم قبل العمل، وقد خالفته الرأي، كما أنَّ الإمام البخاري بوب باباً في صحيحهِ تحت مسمى العلم قبل القول والعمل.

والداعية لا يكون حكيماً إلا إذا كان لهُ نصيب كبير من العلم النافع الصحيح القائم على بيان شرع الله، وجهل الداعية في بعض الأمور قد يؤدي إلى عدم الهدى والفلاح في دعوته، أو الأمر بمنكرٍ، والنهي عن معروفٍ.

وقد قسم ابن تيمية العلم الذي يحتاجه الداعية على ثلاثة أقسام (تيمية أ.، 2004، صفحة 139/13):

القسم الأول: العلم بالله وملائكته وكتبه ورسوله، واسمائه وصفاته، وهي ما ذكره في أواخر سورة

البقرة والإخلاص؛ أما القسم الثاني: ما أخبر الله به رسولهِ، سواء أكان في الماضي، أو المستقبل، وهو ما ذكره في القصص القرآنية، وآيات الوعد والوعيد، والقسم الثالث: العلم بما يتعلق بالقلب والجوارح مثل قواعد الإسلام وأركان الإيمان، وأصول الدين وغيرها. وهو ما جاء في العديد من السور، وحث عليه النبي في سنته.

ب. التوفيق ورجاحة العقل

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:269].

فسر أبو حيان الحكمة: بالقرآن. ثُمَّ فسر قوله تعالى: (فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) على أنَّها جواب شرط لمن وهب الله له الحكمة. ثُمَّ جعل في قوله: (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ) وهم: أصحاب رجاحة العقل، وفيه تنبيه من الله على أنَّ الحكمة تميز بين الحق والباطل وقوله: (يَذَّكَّرُ) بسبب ما قد يتعرض له الحكيم من الغفلة. ولم يضمر الله تعالى لفظ الحكمة هنا؛ بسبب أهميتها والاعتناء بها، والدلالة على فضلها وعظمتها (الأندلسي، 2010، صفحة 334/2).

ج. البلوغ والخبرة

قال تعال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:15].

دلّ كلام أبو حيان في قوله تعالى أنَّ بلوغ الإنسان الأربعين فيه اكتمال العقول وظهور الفلاح.

وأرى: هذا الكلام صحيح. ودلالة ذلك بعث الله النبي محمد هادياً للناس وهو في سن الأربعين.

د. الحلم والأناة

والمقصود بالحديث هنا ضبط النفس، أي أنَّ يكون الأنسان ما بين البلادة والغضب.

ونلاحظ في كتاب الله أنَّ الآيات التي تتحدث عن الحلم أو الأناة جاءت مقرونة بصفات الله كالعفو أو المغفرة، مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران:155]. جاءت صفة الحلم مقرونة بالمغفرة، ومثال آخر حديث الله عن العلم في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الحج:59]، جاءت صفة العلم مقرونة بالحلم. وغيرها الكثير.

ورجح أبو حيان أنَّ صفة الحلم جاءت في القرآن للتوسعة على العباد؛ لأنَّ الله وصف نفسه بالغفور، وهذا مطمع ما وصف نفسه فيه. وكرر ذلك في آيات الوعيد مثال قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة:225] (الأندلسي، 2010، صفحة 190/2).

هـ. الشورى

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:159].

في الحديث عن الآية الكريمة ذكر أبو حيان فوائد كبيرة للشورى، وهي ما تساعد الداعية في إتمام دعوته منها: تطهير عقول المؤمنين، وتطيب نفوس من هم أهل الشورى، وتعلي من مقدارهم.

ثم وضح أبو حيان أهمية الشورى، وعوائدها على المسلمين؛ حيث ينتفع فيها المسلمون في الأمور الدينية والدنيوية، واختبار عقول أهل العلم، وفيها صلاح الدين والدنيا.

ورجح أبو حيان: أن (ما) هنا زائدة جاءت لتأكيد المضمون، وزيادتها بين حروف (الكاف، والباء، وعن، ومن) وبين مجرورتها، شيٍّ معروف باللّغة العربية، ورجح بعض العلماء أنّها نكرة تامة، ورجح البعض أنّها استفهامية. وقولهم أنّها نكرة تامة فيه شيء من الإبهام، إذ أبهم ثم أبدل على سبيل التوضيح. وقولهم استفهامية إذ أنّهم قدروا أن (ما) مضافة والتقدير: فبأيّ رحمة. وهذا فيه خطأ من وجهين الأول: أن (ما) الاستفهامية لا تضاف، ولا يضاف أي حرف من حروف الاستفهام إلا (أيّ) عند جميع النحويين، و(كم) عند أبي إسحاق، والثاني أنَّها جاءت في موضع بدل، وإن كان بدلًا من اسم الاستفهام فلا بد من إعادة اسم الاستفهام، وهذا فيه مخالفة لأحكام الألفاظ (الأندلسي، 2010، الصفحات 103/3-105).

وقوله: (فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ) فيه أمر من الله سبحانه تعالى بالعفو عنهم، بسبب التبعية الخاصة له عليهم، ثم الاستغفار لهم فيما يخصُّ حقوق الله عليهم، ومشاورتهم بالأمور.

وفوائد ذلك عند أبي حيان: تطيب نفوسهم، وجعلهم أهل الشورى، والرفع من مقدارهم (الأندلسي، 2010، صفحة 104/3).

يرى الباحث: أنَّ أهمية الشورى هنا هي بسبب نزول هذه الآية بعد مخالفة الرماة أوامر النبي- صلى الله عليه وسلم- في معركة أحد.

وقوله (فبما): أي في رحمةٍ من اللهِ، وهي للتفريع أي التفريع بين وصف الله لهم من مخالفة أمر النبي، وبين عفو الله عنهم، و(ما) هنا للتأكيد وليست للنفي، وهي ليست بزائدةٍ على الإطلاق كما رجح أبو حيان، بل جاءت بمعنى التوكيد. وحرف الباء: للمرافقة، أي مرافقة لين النبي لهم مع رحمة الله.

ثم أضاف (ما) للتأكيد على أنَّ حالهم كان يستحق التوبيخ والغلظة، إلا أنَّ النبي لين لهم بسبب رحمة الله.

واستحق مع لين النبي لهم العفو والصفح عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم في الأمـــر. وفـــي الآيـــة السابقة دلالة على أهمية الشورى، فبعد مخالفتهم لأمر النبي طلب الله من نبيهِ مشاورتهم في الأمر.

4. آفات ومعيقات الحكمة

أولًا: الجهل

ضد العلم، وذكرت سابقاً أن جهل الداعية يؤدي على عدم الهدى والفلاح في دعوته، لذلك لا بد للداعية من أن يكون له زادٌ كبير من العلم النافع الصالح، مثال معرفته بالله وبأركان الإيمان، وأخبار المسلمين، والإيمان بالعقل والجوارح.

ثانيًا: الهوى

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:50].

فسر أبو حيان من الأسباب الّتي تعيق الحكمة اتّباع الهوى. وقد وضح أبو حيان طبيعة النفس البشـــرية التي تترك الدليل، وتتبع الأهواء المجردة.

وكان ذلك من خلال تفسيريه (أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ) أي إذا لم يستجيبوا لما أتيـــت بـــه مـــن الحجـــج والبراهين، فاعلم أنَّه ما هو إلا اتباع الهوى من دون دليل أو حجج.

والاستجابة في قوله (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ) تستوجب الدعاء والدعاء هنا بأن يأتوا بكتـــاب مثـــل هـــذا الكتاب. ورجح أبو حيان (بِغَيْرِ هُدًى) جاءت في موضع حال وهذا الحال فيه ترجيحات؛ لأنَّ الإنسان يمكن أن يتبع أهواءه المجردة وتوصله إلى طريق الخير؛ لأنَّ اتباع الهوى يكون فيه خير وتقيد مـــن الله (الأندلسي، 2010، صفحة 119/7).

وسبب تحذير أبو حيان اتباع الهوى هو الضلال والبعد عن الهدى وفساد العقل والرأي.

ثالثًا: ترك الشورى

بعد أن وضح أبو حيان فوائد وأهمية الشورى حذر أبو حيان من تركها، وعدم أخذ الشورى من أهل العلم والمعرفة، واتباع النفس البشرية؛ لأنَّ ترك الشورى يؤدي إلى ضعف الدعوة، وتكبر الداعية، واتباع نفسه وأهوائه المجردة، وفساد العقل والرأي.

ويرى الباحث: أنَّ هنالك آفات أخرى قد تؤدي إلى ضياع الحكمة منها اختيار الداعية الأسلوب والوسائل والألفاظ غير المناسبة لدعوتهِ، وغلاظة الداعية في القول والعمل تؤدي إلى نفور المدعو من الداعية ودعوته؛ وسبب ذلك هو هدم الاتصال والتواصل بين الداعية والمدعو.

واهتمام الداعية بإظهار قدراته يعتبر من آفات الحكمة؛ لأنَّها تزرع الكِبر في نفس الداعية، والتشهير بالمدعووين أمام الناس؛ لأنَّه يؤدي إلى نفورهم من هذا الدين وعدم الأقبال عليه.

وبالنظر إلى ما سبق لم يختلف أبو حيان في تفسير الحكمة عن غيره من العلماء إذ جعل الحكمة الإتقان في القول والعمل، كما أنَّه اعتمد في تفسير الحكمة على ذكر أصناف الحكمة.

ثم تطرق أبو حيان إلى بيان طلب الله بالدعوة إلى الحكمة من خلال ذكر مرادف الحكمة.

وذكر أبو حيان الدعائم التي تقوم عليها الحكمة وهي: (العلم، ورجاحة العقل، والبلوغ والخبرة، والحلم والأناة، والشورى)، ثم تطرق للحديث عن الأسباب الّتي تؤدي إلى هدم هذه الدعائم وهي: (الجهل، والهوى، وترك الشورى).

المبحث الثاني: الموعظة في تفسير البحر المحيط

1. معنى الموعظة في تفسير البحر المحيط

ذكر علماء اللغة عدة تفسيرات للموعظة، وقد ذكرتُ في التمهيد بعضاً من هذه التفسيرات التي جاءت على هذا النحو: (النصح والتذكير بالعواقب، أو تذكيرهُ بالثواب والعواقب، أو التذكير بالخير).

وجاء تعريف الموعظة بالاصطلاح:

مجموعة الأوامر والنواهي المرتبطة بالتذكير، والترغيب والترهيب (ابن القيم ، صفحة 344).

وذكرتُ في التمهيد تعريفاً للجرجاني وهو: تليين القلوب، وتدميع العيون، وإصلاح الأعمال.

وعرف البيضاوي الموعظة:" الخطابات المقنعة والعبر النافعة" (البيضاوي، صفحة 426/3).

ونلاحظ مما سبق أنَّ لكل تعريف من التعريفات السابقة مقصداً معيناً، وقف الجرجاني: على أنَّ الموعظة ما يتعظ به الإنسان بالرفق واللين، فتخشع القلوب، وتزكى النفوس، وأما ابن القيم: فقد أهتم باختيار الداعية الأسلوب المناسب لموعظة المدعووين، ووقف البيضاوي: عند مراعاة عقول المدعووين حيث جعل الإقناع لمن يشكك بالدعوة ويطالب بالحقائق، والعبر: لعامة الناس.

وفسر أبو حيان الموعظة على أنها: القرآن، والوعيد، والتحريم، والنصح والإرشاد، والتنبيه، والترغيب والترهيب، والتذكير، والعبرة، والعظة[1].

يرى الباحث: أن تعريف أبي حيان أعم وأشمل؛ لأنَّه جعل مضمون الموعظة قائماً على النصح والإرشاد إلى الخير، ثم التنبيه من معصية الخالق، وأنهى الكلام بالتذكير بالعذاب والعقاب لمن لم يستجيب، من خلال الترغيب والترهيب.

[1] ورد ذكر لفظ الموعظة في كتاب الله في تسعة مواضع وهي سورة البقرة الآيتان 275،66، سورة آل عمران الآية 138، وسورة المائدة الآية 406، وسورة الأعراف الآية 145، وسورة يونس الآية 57، وسورة هود الآية 120، وسورة النحل الآية 125، والنور الآية 34.

2. البيان القرآني للموعظة في تفسير البحر المحيط

قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل:125].

ذكر أبو حيان تفسير (الأندلسي، 2010، صفحة 531/5). عن الزمخشري وهو: الحكمة: المقالة المحكمة الصحيحة الخالية من الأخطاء، وهي الحق والدليل المزيل للشبهات، والموعظة: هي ما ينصح بها وينتفع بها وسبيل ربك: أي الدين الإسلامي.

والمعنى: ادعوهم بالقرآن الّذي هو موعظة وحكمة، ثُمَّ جادلهم بالرفق واللين من غير غلظةٍ أو غضب.

3. وسائل الموعظة في تفسير البحر المحيط

أ. الوعد والوعيد

ورد في الذكر الحكيم العديد من الآيات التي تتضمن الوعد والوعيد، ومن بين هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨ ﴾ [النساء:48].

وفي هذه الآية يستعرض أبو حيان أقوال فرق تنتسب للإسلام مثل: (المعتزلة، والمرجئة، والخوارج)، ولا نريد التفسير المطول لهذا الكلام لأنَّه يدخل في أبحاث العقيدة والتوحيد والأديان والفرق، والمهم هنا هو قضية العموم والخصوص في الوعد والوعيد.

والمهم في هذا الكلام هو تنسيب أبي حيان على من وقع الوعد والوعيد، "فَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لا يغفرُ أَن يشركَ بِهِ، والمعنى: أَنَّ من مات مشركاً لا يغفرُ له، هو أصلٌ مجمعٌ عليهِ من الطَّوائفِ الأَربعِ. وقولهُ: ويغفرُ ما دُونَ ذلك، رادٌّ على الخوارجِ وعلى المُعتَزِلةِ، لأَنَّ ما دُونَ ذلك عامٌّ تدخلُ فيهِ الكبائرُ

والصَّغائرُ. وقولهُ: لمن يشاءُ رَادٌّ على المرجئةِ، إذْ مدلُولهُ أَنَّ غفرانَ ما دُونَ الشِّركِ إنَّما هَو لقــومٍ دُونَ قَومٍ على ما شاء تعالى، بخلافِ ما زعمُوهُ بأَنَّ كلَّ مؤمنٍ مغفورٌ له. وأدلَّةُ هؤُلاء الطّوائفِ مذكورة في عِلمِ أُصُولِ الدِّينِ. وقد رَامَتِ المُعتَزِلَةُ وَالمُرجِئَةُ ردَّ هذه الآيَةِ إلى مقالاتهِما بتأْوِيلَاتٍ لَا تصِــحُّ، وهــي مُنَافِيَةٌ لما دلَّت عليهِ الْآيَةُ" (الأندلسي، 2010، الصفحات 3/278-280).

وعلى خلاف أقوال الفرق السابقة وردُّ أبي حيان عليهم، كان من بين الوسائل التي يستخدمها الداعية في موعظة الناس بيان ما ينتظر من مات منهم على الإسلام أو من مات منهم على الكفر، وبيان حال مــن تاب إلى الله بعد شركهِ به، ثم بيان من يغفر الله لهم، وهذا ما يساعد الداعية على موعظة المدعوّين في باب الترغيب والترهيب.

ب. بيان التنبيه والتثبيت

والمقصود بالحديث في هذا المطلب بـــ(التنبيه): أي تحذير المدعوّين مما جرى مع من سبقهم من الأمم السابقة، و(التثبيت): أي تثبيت ثواب الّذين آمنوا مع رسولهم.

من الوسائل التي استخدمها أبو حيان في موعظة الناس في تفسيره، عرض وإظهار ما حدث مع الأمــم السابقة في باب الثواب والعقاب، وتفسير ما جرى لهم، وبيان سبب ذلك، كقصص الرسل مع أقــوامهم، وبيان ثواب الّذين آمنوا معهم من أقوامهم، وعقاب الّذين كفروا منهم.

ومن أمثلة هذه القصص قصة النبي موسى – عليه الصلاة والسلام– مع فرعون وقومه، بــين الله عــز وجل في كتابهِ ثواب من آمن مع موسى، وعقاب فرعون ومن ضلَّ معه[1].

[1] أخذ هذا الدليل من سورة طه وسورة القصص.

ج. بيان حال المؤمن والكافر يوم القيامة

من وسائل الموعظة عند أبي حيان عرض حال المؤمن يوم القيامة، وما سيقابله من جنات النعيم، وحال الكافر يوم القيامة وما سيقابله من عذاب جهنم.

ووضح أبو حيان ذلك من خلال حديثهِ في سورة الزمر قال تعالى:﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾[الزمر:71-73].

وفي تفسير ما سبق ذكره أنَّ أبا حيان، بعد أن أنهى الله ذِكر أحوال يوم القيامة، عمد الله إلى ذِكر أحوال الذين كفروا، واتقوا.

وقوله: (وَسِيقَ)، أي المسير بسرعة وعنف إلى جهنم. وقوله: (فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا)، أي أبواب جهنم مغلقة لا تفتح إلا عند حضور الكافرين. وقوله: (وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ)، أي على سبيل السخرية والتوبيخ. وقوله: (يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ)، أي كتبه السماوية. وقوله: (قَالُواْ بَلَىٰ)، اعتراف منهم باستحقاقهم هذا العقاب (الأندلسي، 2010، الصفحات 7/424-425).

وعلى عكس ذلك حال المتقين، حيث يساق بهم إلى الجنة مكرمين، وقوله: (وَفُتِحَتْ)، حال، جعلت الجملة حالية أي أنَّ أبواب الجنة تبقى مفتوحة حتى يأتي أهل التقوى. وهم خالدون فيها (الأندلسي، 2010، الصفحات 7/424-425).

وعلى ضوء ذلك على الداعية الاستفادة من هذه الوسائل في موعظة الناس، من خلال عرضها، وتوضيح نصوصها، وبيان الدروس والعبر المستفادة منها.

4. آثار الموعظة الحسنة

والمقصود بهذا المطلب هو إيضاح الآثار المترتبة على الدعوة إلى الله من خلال الموعظة الحسنة.

قسمتُ الحديث في هذا المطلب إلى قسمين، القسم الأول هو: الآثار العائدة على الداعية (الواعظ)، والقسم الثاني: الآثار العائدة على المدعو (الموعوظ).

- **الآثار المترتبة على الواعظ:**

أ. استجابة أمر الله

قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل:125].

ورد تفسير هذا القول سابقًا، والمهم في قول الله تعالى: هو استجابة الداعية وامتثاله لأوامر الله سبحانه وتعالى وهي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالرفق واللين.

وامتثال الداعية لأمر النبي، وقد ذكرتُ من صفات الداعية في السنة النبوية الشريفة القدوة الحسنة، وذلك في حديث: (بلغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عني بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار).

ويترتب على ذلك:

ب. صلاح الدعوة

قال تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[الأحزاب:70-71].

ج. الأجر العظيم

قـــــال تعـــــالى:﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾[آل عمران:104]

سبق تفسير هاتين الآيتين سابقًا.

- **الآثار المترتبة على الموعوظ**

هذا وإذا ما رغبَ الداعية إلى الله سبحانه وتعالى الحصول على استجابة وإقبال المدعوّين، والتأثير فيهم من الناحية النفسية والوجدانية، وجب عليه أن يستخدم أسلوب الموعظة الحسنة، لما فيها من قدرةٍ علـــى التأثير عليهم وعلى مشاعرهم.

ووضع الغزالي ضوابط صناعة التعليم بأن يوعظ بالسر ولا يصرح ما أمكن، وأن يلجأ إلى الرحمـــة لا إلى التوبيخ؛ لأنَّ التصريح يضعف هيبة الداعية، ويورث الجرأة للرد عند المدعو.

يترتب على استجابة المدعو دعوة الداعية:

أ. نيل رضى الله

قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١﴾ [الأحقاف:31].

قوله: (يَٰقَوۡمَنَآ) نداء جاء للفت الانتباه، وقوله (أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ)، أي الرسول. والمعنى المراد هو طلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين استجابة دعوة رسوله الكريم، وجزاء من يقبل دعوته يغفر الله ذنوبه، ويحميهم من العذاب الأليم. ونيل رضى الله (الأندلسي، 2010، صفحة 67/8).

ذكر بعض العلماء: أن حرف الجر (من) للتبعيض.

ب. النجاة والمغفرة من العذاب

قال تعال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ [الرعد:18].

بعد أن فرغ الله سبحانه وتعالى إلى بيان ما يستحق أهل الحق من ثواب، شَرعَ ببيّان ما يستحق أهل الباطل من العقاب، وذكر أنَّ سبب نيلهم الحسنى، والنجاة والمغفرة من العذاب، هو استجابتهم لدعوة رسول الله الكريم- صلى الله عليه وسلم-.

ومن الناحية اللغوية: قدم الله الجار والمجرور (لِلَّذِينَ) على المبتدأ (ٱلۡحُسۡنَىٰ) للاعتناء، والاهتمام (الأندلسي، 2010، صفحة 373/5).

ج. الفوز بالدنيا والأخرة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:24].

جاء معنى الاستجابة هنا بالامتثال، والدعاء: بمعنى البعث والتحريض. وأفرد الله الضمير في (دعاكم): للتوكيد. وقوله: (وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ) أنَّ الله هو القادر على منع حصول الإنسان على ما يشتهيه قلبه (الأندلسي، 2010، الصفحات 4/475-476).

والمعنى: أكد الله أنَّ امتثال العبد لدعوة رسول الله، يؤدي إلى إجابة ما يدعو إليه الإنسان، أو تحقيق ما يشتهيه قلبه.

وعلى ما سبق، اختلق أبو حيان في تفسير الموعظة ففسر الموعظة بالقرآن، وبموضع آخر بالوعيد، أو التحريم، أو النصح والإرشاد، أو التنبيه، أو الترغيب والترهيب، وقد قمت بجمع هذه التفسيرات في تفسير شامل، وتطرق أبو حيان في بيان طلب الله بالدعوة إليه بالموعظة الحسنة، وذلك من خلال ذكر تفسير على قول الزمخشري، ثُمَّ بيان وسائل الدعوة إلى الله بالموعظة، وهي: الوعد والوعيد، والتنبيه والتثبيت، وبيان حال المؤمن والكافر يوم القيامة.

وختمت الحديث في هذا الفصل ببيان آثر الموعظة الحسنة على الواعظ (استجابة أمر الله، وصلاح الدعوة ونجاحها، والأجر العظيم) والموعوظ (نيل رضى الله، والنجاة والمغفرة من العذاب، والفوز بالدنيا والآخرة).

المبحث الثالث: البصيرة في تفسير البحر المحيط

1. معنى البصيرة في تفسير البحر المحيط

جاء معنى البصيرة[1] في المعاجم اللغوية على أنَّها: الحجة والبرهان، وجاءت بمعنى: عقيدة القلب والفطنة.

وفي الاصطلاح: "قوة القلب المنورة بنور القدس، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها وهي الَّتي سمها الحكماء العاقلة النظرية والقوة النفسية" (الجرجاني، 2011، صفحة 42؛ المناوي، 1990، صفحة 79).

وقيل البصيرة: العلم الّذي ينار به القلب، ويدرك من خلالهِ العقل (العنزي، 2005، صفحة 17).

وبالنظر إلى كلا التعريفين ندرك أنَّ البصيرة: هي أعلى درجات العلم، والّتي يدركُ بها العقل، ويبصر من خلالها القلب، محدثاً بذلك الفطنة أو الفراسة والخبرة العلمية في جلّ الأمور.

وعرف أبو حيان البصيرة أنَّها: الحجة والدليل الواضح، والبرهان المتيقن (الأندلسي، 2010، صفحة 346/5).

ونستطيع أن نجمل معنى البصيرة: بأن يكون الداعية على علم بما يدعو إليه، والأصول الَّتي يدعو إليها، وعلى معرفة بحال المدعووين، وأصنافهم، وكيفية دعوتهم بالأسلوب الدعوي المناسب، مسنداً ذلك بالأدلة الشريعة المناسبة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

([1]) ورد في القرآن الكريم لفظ البصر والبصيرة، جاء في معاجم اللغة العربية أنَّ أصل الكلمتين هو (بصر) (الباء، والصاد، والراء) ذكرت تفسير عن ابن فارس أنَّ (بصر) أصلان أحدهما: العلم والمعرفة بالأشياء، ومنها البصيرة، والثانية التي ذكرت بالقرآن هي جاءت بمعنى العين المجردة، ومنها الشاهد (سورة القيامة: الآية 14).

2. البيان القرآني للبصيرة في تفسير البحر المحيط

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف:108].

فسر أبو حيان البصيرة: بالحجة والبرهان، وظاهر الآية عند أبي حيان هو أن يدعو هو ومن اتبعه إلى الله على بصيرةٍ، ثم أمر الله النبي أن ينزهَهَ عن أي شريك في الملك، وأمر الله النبي بالدعوة إليه على بصيرةٍ؛ لأنَّها تشمل الصواب، وتقطع الشك، وتَظهرُ بها الحقائق، وتَصرفُ الباطل (الأندلسي، 2010، صفحة 346/5).

3. البصيرة بما يدعو إليه الداعية

أ. البصيرة بالدعوة إلى الله ككل

من أهمِ الأسس والقواعد الَّتي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، والَّتي أكدها النبي محمد في سنتهِ الشريفة في سبيل الدعوة إلى الله وهي: أن يكون الداعية على بصيرةٍ في دعوته.

وأكد أبو حيان ذلك حيث ذكرتُ: أنَّ أبا حيان رجح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾[آل عمران:104]. أنَّ حرف الجر (من) للتبعيض، وعلى قوله يظهرُ أنَّ من يقع عليه الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم: (العلماء، ومن علم المعروف والمنكر). وأيدتُ أبا حيان في هذا القول؛ لأنَّ الجاهل بهما يمكن أنَّ يأمر بمنكرٍ، وينهى عن معروفٍ.

والبصيرة أعلى مراحل العلم، وسميت بصيرة لأنَّها تضم العلم والمعرفة بالأشياء، والحجة والدليل والبرهان، وعقيدة القلب والفطنة، كما أنَّها تميز بين الحق والباطل، وتحقق المراد للداعية في سبيل دعوته.

واعتماداً على ما سبق يمكننا أن نجمل البصيرة في الدعوة إلى الله: أن يكون الداعية على معرفة تامة بفحوى هذه الدعوة من: وسائل، وأساليب، ونهج، وأحوال، وصفات وغيرها.

ب. البصيرة العلم

من الأمور الَّتي خالفتُ أبا حيان بها عندما رجح الآتي: لا أهمية للعلم قبل العمل في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:19]. حيث ذكر أبو حيان أنَّه لا أهمية للعلم قبل العمل، وأنَّ الخطاب للرسول الكريم بالاستمرار والثبات، وقد خالفته الرأي، وذلك لأنَّ في الآية الكريمة أمرين، أما الأمر الأول: فهو العلم (فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ)، والأمر الثاني: هو العمل (وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ).

وظاهر القول: إنَّ ما جاء عند أبي حيان صحيح بأنَّ الخطاب للرسول الكريم، لكن أبا حيان أخطاء بتقدير لا أهمية للعلم قبل العمل؛ لأنَّ الخطاب الأول للرسول الكريم، فيا محمد إذا علمت أنَّ التوحيد يؤدي إلى دار السعادة فاثبت عليه. وبذلك قدم العلم على العمل.

وما يؤكد ذلك القول: إنَّ أول ما بدأ به الله مع الرسول الكريم بالرسالة السماوية هو: العلم حيث قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق:1].

وجاء في قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:78] إنَّ أول ما أشار إليه الله في هذه الآية هو العلم وقدم العلم على السمع والأبصار والأفئدة، وهذا فيه دلالة على أهمية العلم.

وتقديم العلم على العمل: فيه صلاح للدعوة، والداعية، والمدعو؛ لأنَّه يؤدي إلى نجاح الدعوة، وفلاح الداعية في الدنيا والأخرة، والوصول إلى ما يحتاجه الداعية في دعوته، وللمدعو بقبول هذه الدعوة، والنجاة من عذاب القبر.

ج. البصيرة الحجة والبرهان

يقول الزمخشري عن الحجة والدليل: أنَّ الحجَّةَ مهمة في سبيل الدعوة إلى الله، وهي أسبق في الأهمية من بعث الرُسُل- رضوان الله عليهم-؛ لأنَّ الكافرين بالله يمتلكون براهين عقلية يعرفون من خلالها الله سبحانه وتعالى، لكنهم أغفلوا عن هذه الأدلة (الزمخشري، 2009، صفحة 592).

قال تعالى:﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[الإسراء:15].

وفسر أبو حيان قول: انتفاء التعذيب أي أنَّ الله لم يكن ليعذب المشركين حتى يقيم عليهم الحجة وهي بعث الرُسُل، ثُمَّ يُكذَّبُ هؤلاء المشركون بما جاء به الرُسُل، فيحصل العذاب وانتفاء التعذيب أعم وأشمل من العذاب في الدنيا والآخرة، فهو يجمع ما بينهما (أي العذاب في الدنيا والأخرة) (الأندلسي، 2010، صفحة 15/6).

وأرى أيضا: في الآية السابقة تجلى عدل الله سبحانه وتعالى بالعباد؛ لأنَّه لم يعذب المشركين، حتى يعلموا فحوى هذا الدين، وتوصيل الرسالة السماوية إليهم، فإن لم يهتدوا بما نزل عليهم عذبهم الله في الدنيا والآخرة.

والحجة والبرهان من الأمور المهمة جدًا في سبيل الدعوة إلى الله؛ لأنَّها تُبصر المشركين بما يترتب عليهم بعد تكذّبهم بالرُسُل، وفي الحجة إبراء الله وقطع الحجج على المشركين بعد أغفالهم عن الإيمان بما جاء به الرُسُل.

4. البصيرة بالأصول التي يدعو إليها

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:285].

فسر أبو حيان: (ءَامَنَ) أي إيمان الرسول والمؤمنين. وقوله (ٱلرَّسُولُ): (الألف واللام) للعهد. والرسول هو محمد–صلى الله عليه وسلم– وقوله: (أنزل إليه): أي العقائد والشرائع والأحكام المنزلة من الله سبحانه وتعالى (الأندلسي، 2010، صفحة 378/3).

والمعنى المراد: هو آمن يا محمد بما وصل إليك من ربك من (العقائد، والشرائع، والأحكام) وقدم الله إيمان الرسول على المؤمنين؛ لأنَّ إيمان الرسول هو المتقدم على إيمان المؤمنين.

يرى الباحث: كلام أبي حيان صحيح. لأنَّ (وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ) معطوف على (الرسول) وعليه يكون قوله (كُلٌّ) أي الرسول المؤمنين آمنوا بما أنزل الله.

ورجح أبو حيان: أنَّ هذا الترتيب في غاية الفصاحة؛ لأنَّ الإيمان بالله: هو الذي يُستدل به، ثُمَّ الملائكة؛ لأنَّه حلقة وصل بين المؤمنين ورُسُله، ثُمَّ كُتبه؛ لأنَّه ما تتناقله الملائكة، ثُمَّ الرُسُل؛ لأنَّهم هم المتأخرون.

وعلى قول أبي حيان يكون الأصول التي يجب على الداعية العلم والمعرفة التامة بها وهي: الدعوة إلى إيمان الله والملائكة، والكتب السماوية، والرُسُل– رضوان الله عليهم–.

والدعوة إلى الإيمان بالعقائد والشرائع، والأحكام التي شرعها الله سبحانه وتعالى وأنزلها على سيدنا محمد.

5. قواعد الدعوة إلى الله في تفسير البحر المحيط

والمقصود بالحديث في هذا المطلب مجموعة القواعد الَّتي يستندُ عليها الداعية في سبيل نجاح دعوتـــه، وهذه القواعد لم يصرح أبو حيان في الحديث عنها، ولم يذكرها من الناحية اللغويـــة، إلا أنَّنـــي بـــذلتُ مجهوداً في سبيل استنتاج هذه القواعد، وكان ذلك عن طريق الاستناد على تفسير أبي حيـــان لمعـــاني مفردات (الحكمة، والموعظة، والبصيرة) كما وردت في تفسير البحر المحيط.

القاعدة الأولى: اتباع النبي يسبب طهارة النفس

من أهمٍ وأفضل عناصر البيان الّتي تنطلق الرسالة السماوية بها، وهو أن يطهـــرَ الداعيـــة نفســـه، وأن يتجرد مما تدعو نفسه إليه.

ووضح أبو حيان ذلك من خلال تفســـير قـــول الله:﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ ﴾[البقـــرة:151].

وفسر أبو حيان هذه الآية بالآتي: يشعر المؤمنون بالامتنان؛ بسبب ما جمع الله لهم من صـــفاتٍ، وقـــد جمع أبو حيان أولاً صفة: (رسولا منهم) أي من العرب، ثانياً: تلاوة آيات الله، وثالثاً: التزكية، ورابعاً: تعليم الكتاب والحكمة (الأندلسي، 2010، صفحة 617/1).

والصفة الأولى جاءت للاعتناء بالعرب فبعث الله رسولاً منهم. والصفة الثانية: هي الحجـــة والبرهـــان على صدق ما جاء به الرسول الكريم، أما الصفة الثالثة: التزكية جاءت لتطهير الـــنفس مـــن أجنـــاس الضلال مثل الكلام القبيح أو النجس؛ لأنَّها من المنفرات الّتي تبعد المدعو عن قبول هذه الـــدعوة، أمـــا الصفة الرابعة: تعليم الكتاب والحكمة: فيه تطهير للنفس والقلب من خلال اتباع النبي، وســـبق الحـــديث عن القدوة الحسنة في صفات الداعية في السنة النبوية الشريفة.

القاعدة الثانية: العقل المميز بين الحق والباطل

من الأسس الّتي يجب على الداعية القيام بها: التمييز بين الحق، والباطل، لذلك جعل أبو حيان الدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لمن علم أصول الدعوة، وعلم المعروف، والمنكر، لكي يتجنب الداعية الوقوع في الخطأ أو الغفلة عن الصواب.

لذلك من أهم عناصر الحكمة التي تساعد الداعية في سبيل نجاح دعوته، وهي التمييز بين الحق والباطل.

ووضح أبو حيان ذلك عندما ختم القول في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:269]

حيث رجح أبو حيان أنَّ الحكمة هي العقل المميز بين الحق، والباطل (الأندلسي، 2010، صفحة 334/2). وعلى الداعية التمييز بين ما فيه صلاح للعباد ودعوته إليه، وبين ما فيه فساد للعباد والنهي عنه.

إذا تعرض الداعية للغفلة اثناء دعوته، ثُمَّ تذكر الداعية ما هو أصح في دعوته فعلى الداعية تصليح هذه الغفلة، وتحري الصواب في دعوته.

القاعدة الثالثة: معرفة وفهم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

على من حمل لواء هداية الناس، ودعوتهم إلى دين الخير، أن يكون مؤهلاً للمستوى العلمي، ذلك من خلال معرفة القرآن الكريم وفهمه، والسنة النبوية الشريفة.

يرى الباحث: في ذلك منطقاً فالجاهل بالقرآن الكريم أو السنة النبوية لا يصلح للدعوة إلى الله، وغير قادر على توصيل أو تفيهم الناس فحوى هذا الدين.

ووضح أبو حيان ذلك عندما فسر قــول الله تعــالى:﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة:129]. حيث فســر الكتــاب بالقرآن الكريم، والحكمة: الشريعة وبيان الأحكام، أي أن يبعث الله رسولاً من المسلمين يعلمهم الكتــاب والحكمة، أي يعلمهم ما يحتوي عليه القرآن من شرائع وأحكام (الأندلسي، 2010، صفحة 563/1)

وبعث الله الرسول ليعلمهم الكتاب والحكمة، وفيه دلالة على أهمية تعليم القرآن الكريم والســنة النبويــة الشريفة، سواء في سبيل الدعوة إلى الله، أو الرد على الكافرين.

القاعدة الرابعة: مجادلة المدعوّين بالرفق واللين من دون غلظة وتعنيف

لقد أوضحت لنا الرسالة السماوية، أنَّ الرسول الكريم ومن سبقه من الأنبياء المرســلين، كــانوا أرقــى الناس والأمم خلقاً، وأحسن الناس للناس، وأكمل الناس رفقاً ولطفاً.

ومما ورد عن أهل السلف الصالح أنَّ الرسول الكريم قابل الأذى والشتائم بالصفح والعفو، وكــان دون أن يرد الإساءة بالإساءة ولنا بالسيرة النبوية نماذج نبوية كثيرة.

ووضح أبو حيان ذلك؛ حيث فسر قــول الله تعــالى:﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحــل: 125]. على الداعية إلى الله أن يدعو بالحكمة والموعظة ومجادلة المدعوّين بالرفق من دون إســاءة، أو تعنيف.

القاعدة الخامسة: وضع الأمور مواضعها على الصواب

فسر أبو حيان الحكمة فــي قولــه تعــالى:﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ

ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ [البقرة:251]. بوضع الأمور موضعها على الصواب (الأندلسي، 2010، صفحة 278/2).

وهذا التفسير يندرج تحت مجموعة من القواعد منها:

على من أراد أن يدعو إلى الله، وحمل الرسالة السماوية أن يحسن اختيار الأسلوب والمنهج المناسب، وأن يتدرب على كيفية الابتداء في الدعوة، ومن ثُمَّ التدرج حتى نهاية الدعوة.

على حامل الرسالة السماوية حُسن اختيار الدليل المناسب، أي أن يختار دليلاً يؤمن به المدعو، ومن ثُمَّ التسلسل إلى دليل لا يناقشه فيه المدعو مثلما فعل إبراهيم مع الّذي حاجهُ في ربهِ.

على حامل الرسالة السماوية الابتداء بمن يقدر على دعوتهم كالأقارب، ثُمَّ الانتقال من جماعة إلى جماعة أخرى، في حال يأس الداعية من الجماعة الأولى.

القاعدة السادسة: استثارة ضمير المدعو

من خلال ما سبق وضح أبو حيان أنَّ على الداعية استثارة ضمير المدعو؛ لأنَّ لكل إنسان نفس محبة للخير والحق، ونابذة للظلم والشر.

وفسر أبو حيان قول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: 125].

إنَّ الموعظة تقوم بوظيفية الترغيب والترهيب من خلال ترغيب المدعو بعرض نعيم الجنة، وترهيب المدعو من خلال عرض عقاب الله سبحانه وتعالى. والموعظة تلعب دور استثارة الوجدان الداخلي عند المدعوّين، وعليه يكون الاقناع الفكري والوجداني.

القاعدة السابعة: النصح والإرشاد

فسر أبو حيان: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:46]. بالنصح والإرشاد (الأندلسي، 2010، صفحة 511/3). وعلى اختلاف تخصيص النصح والإرشاد للمتقين أم لا، بين أنَّ على حامل الرسالة السماوية تقديم النصائح والإرشادات في سبيل نجاح دعوته، وهداية الناس إلى طريق الخير، وفلاح دعوته، ونجاة المدعو من عذاب الله وقبول هذه الدعوة.

القاعدة الثامنة: استخدام الحجة والبرهان في سبيل الدعوة إلى الله

فسر أبو حيان البصيرة في الآية الآتية: بالحجة والبرهان، والدليل المتيقن (الأندلسي، 2010، صفحة 346/5).

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:108].

وعلى من أراد الدعوة إلى الله أن يستخدم الحجة والبرهان في سبيل اثبات دعوته أو اثبات صدق ما جاء به.

إذا اقتضت حال المدعو إلى الله إلى النقاش والمجادلة حول قضية معينة من قضايا هذه الدعوة، على الداعية أن يستخدم أسلوب الحجة والبرهان في سبيل نجاح دعوته، وإقناع المدعو بقبول هذه الدعوة.

واستخدام أسلوب الحجة والبرهان لا يغني من استخدام الحكمة في إقناع المدعوّين، وموعظة المدعوّين من خلال الترغيب والترهيب، وثُمَّ مجادلتهم بالرفق واللين من غير مجادلة أو غلاظة كما قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: 125].

ومما يؤكد هذا الكلام هو أنَّ إقامة الحجة بشكل صحيح، يقتضي مـــن الداعيـــة أن يســـتخدم الوســـائل والأساليب المناسبة للحكمة والموعظة والمجادلة، وعلى الداعية أنَّ لا يغفل أنَّ الغاية الرئيسة لـــهُ هـــي البلاغ والتذكير وأنَّ أسلوب الحجة والبرهان وسيلة لتحقيق هذه الغاية.

وعلى ما سبق. عرف أبو حيان البصيرة بالحجة والبرهان الواضح، وأجملتُ تعريـــف البصـــيرة فـــي الدعوة إلى الله، وهي أنَّ يكون الداعية على علم بفحوى هذه الدعوة من أصول وأساليب.

ومن خلال هذه التعريفات، استخدمت أركان ودعائم البصيرة في الدعوة إلـــى الله، والعلـــم والمعرفـــة والحجة والبرهان.

ثُمَّ ذكرتُ الأصول الّتي جاءت في تفسير البحر المحيط، وهي العلم بأركان الإيمان، والمعرفـــة التامـــة بالشرائع والأحكام التي شرعها الله.

وختمت الحديث في هذا الفصل بذكر بعض القواعد في الدعوة إلى الله كما جاءت عند أبي حيان مستندًا بذلك على تفسير أبي حيان لمعنى الحكمة والموعظة والبصيرة.

الفصل الرابع

أصناف المدعوّين من خلال تفسير البحر المحيط

أنَّ الدعوة إلى الله لها مقومات ومحاور ومن هذه المحاور (الداعية، والمدعو)، وبعد أن فرغنا من الحديث عن الداعية، وجب أن نذكر أصناف المدعوّين، وكيفية دعوتهم إلى الله، كما ورد في تفسير البحر المحيط.

أرسل الله سبحانه وتعالى الرُسُل لوظائف كثيرة منها: إصلاح أحوال الناس، وإدارة شؤون الدولة الإسلامية، والتبشير، والتحذير، وغيرها الكثير، إلا أنَّ المهمة الرئيسة هي: تبليغ الرسالة السماوية، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هذا المنطلق أوجب الله سبحانه وتعالى على الرُسُل الانتقال خلف المدعو لنقل الدعوة له، وتبليغه فحوى هذه الرسالة، لقول الله: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المائدة:99].

وفي فصل البصيرة تحدثنا على الداعية أنَّ يكون على علم ودراية بالمدعوّين، وخصوصًا أنَّ المدعوّين يختلفون بأصنافهم فالمدعو المسلم يختلف عن غير المسلم، ويختلف المدعو الذكر عن الأنثى، وتختلفُ دعوة الملأ من الناس عن دعوة جمهور الناس، وغيرها الكثير من الاختلافات؛ لذلك من غير الممكن أن يتبع الداعية خطاب الدعوة أو الأسلوب الدعوي الواحد مع جميع المدعوّين.

وقد علَّمَ الله سبحانه وتعالى الدعاة كيفية الدعوة إليه من خلال القرآن الكريم، ثمَّ بيّن أبو حيان هذه الآيات من ناحية تفسيرية لغوية.

المبحث الأول: المدعوون من غير المسلمين

ذكرنا أنَّ خطاب الدعوة إلى الله موجه إلى كل من المؤمنين والكافرين، وسنبدأ الحديث عن خطاب الدعوة الموجه إلى الكافرين؛ لأنَّهم هم المطالبون بقبول هذه الدعوة، وليس الازدياد بالإيمان كما عند المؤمنين، وصنفهم أبو حيان إلى ثلاثة أصناف وهم: المدعوّن من الكفار الأصليين، والكفار المرتدين، وأهل الكتاب.

وكما أسلفنا في الحديث عن الداعية، وجب علينا أن نتعرف إلى المدعو في المعاجم اللغوية، وفي تفسير البحر المحيط.

المدعو لغةً

جعل ابن فارس (الدال، والعين، والحرف المعتل دلالة واحدة وهو أن تجعل الشيء إليك) (فارس، 1979، صفحة 279/2). وفي لسان العرب: المدعو اسم مفعول من دعا، وهو أن تجعل الشيء إليك، مثال ذلك: دعا الرجل أي ناداه، ودعوت فلان: أي استدعيته (ابن منظور، 2010، صفحة 258/12).

أما المدعو في الاصطلاح

قيل: "هو من توجه إليه الدعوة" (البيانوني، 1995، صفحة 175).

وعرف أبو حيان المدعو: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة:21].

(يا): حرف نداء، وهو أعم وأشمل حروف النداء لذلك كَثُرَ استخدامه بالقرآن الكريم، إذ ينادي به على البعيد والقريب. وقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) خطاب موجه لكل بالغ عاقل من كلا الجنسين. وقوله: (ٱعۡبُدُواْ

رَبَّكُمُ) أي أمر الله سبحانه وتعالى المخاطبين بالعبادة وذَكرَ أبو حيان أنَّ أمر العبادة يشمل المؤمنين والكافرين على مختلف أصنافهم (الأندلسي، 2010، الصفحات 1/231-233).

ونلاحظ مما سبق أنَّ علماء اللغة جعلوا لفظ المدعو مشتق من الفعل دعا وهو ما يدلَّ على النداء والاستعانة والحض.

وفي الاصطلاح جعل الباحث كل من توجه إليه الدعوة بالمدعو، أي أوقع الدعوة على جميع الناس.

ومما جاء عند أبي حيان نلاحظ أنَّه وضع شروطاً وضوابط لمن يطلق عليه (بالمدعو)؛ حيث جعل مصطلح المدعو موجهاً لكل بالغ عاقل، أي أخرج الصغير وغير العاقل من خطاب الدعوة، ثُمَّ جعل أبو حيان خطاب الدعوة موجهاً لكل مؤمن وكافر؛ لأنَّ المؤمن يُرجى منه الازدياد في الإيمان، والكافر للدخول إلى هذا الدين الحنيف.

المطلب الأول: المدعو من الكفار الأصليين

قصدت الحديث بالكفار الأصليين أي الكفار الّذين لم يدخلوا إلى الإسلام أصلاً وهم كُثر، ومن ديانات مختلفة مثل اليهود، والمجوس، والنصارى وغيرهم.

بيّن أبو حيان في تفسيره كيفية دعوة هؤلاء إلى الإسلام، وكيفية توجيه خطاب الدعوة إليهم، وعلى كلامهِ جعل أبو حيان لهؤلاء أقسام: ثمَّ بينتُ كل قسم وكيفية دعوتهم.

القسم الأول: الكفار الملحدون

الأصل بالإلحاد: الميل عن الحق، وقد عرف ابن فارس الإلحاد: "ميلٍ عن استقامةٍ" (فارس، 1979، صفحة 5/236). وعرفه أبو حيان: "بالميل عن القصد" (الأندلسي، 2010، صفحة 6/336).

أما مصطلح الإلحاد المراد في هذا المطلب، وهو المعنى المرادف للمصطلح المتعارف عليه في هذا الزمن: هم المنكرون لوجود الله سبحانه وتعالى، والمنكرون لوجود رب خالق لهذا الكون، أو رب متحكم فيه، والمنكرون لوجود رب يدبر هذا الكون بأمره وحكمته من السماء، واعتبار هذا كله من المواد الأزلية الّتي تمت عن طريق الصدفة، وأنَّ هذه التطورات نتاج التطور الذاتي للإنسان وهذه المواد الأزلية.

وضح أبو حيان من خلال حديثه عن الإلحاد كيفية دعوة هؤلاء إلى الإسلام وذلك عن طريق: توجيه خطاب الدعوة إليهم، ثُمَّ تدعيم ذلك بالأدلة والبراهين.

في البداية فسر أبو حيان قوله:﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾[إبراهيم:9]، أنَّ هذا من بقية خطاب الدعوة الّذي وجههُ موسى إلى قومهِ. وقيل: أنَّه خطابٌ وجهه الله لهذه الأمة. وقوله: (أَلَمْ) للتوبيخ والتقرير. وقوله: (ٱلَّذِينَ) مجرور على عطف ما قبله (ٱلَّذِينَ) أو (قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ) (الأندلسي، 2010، صفحة 397/5).

وعلى اختلاف التفسير أما هو من خطاب موسى في الدعوة إلى الله أو خطاب الله لجميع الأمة، وما يهمنا هنا هو استخدام أسلوب الخطاب في الدعوة إلى الله.

وفي تفسير الآية التالية: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾[إبراهيم:10]. يورد أبو حيان تفسيرات عن أبي عبيدة، والقُتبيَّ، وابن عطية. ويخلص أبو حيان إلى أنَّ هذا الخطاب وجهه الله إلى طائفتين طائفة كذبت

وكفرت بوجود الله، وطائفة شكت بوجود الله. ثم جعل أبو حيان الشك في موضع كفر (الأندلسي، 2010، صفحة 398/5).

وفي بيان كيفية دعوتهم نستنتج من خلال حديث أبي حيان:

أولا: أنَّ الله أوجب على الداعية نزع الشك والتكّذيب من نفس المدعو، وذلك من خلال تنبيه المدعو إلى ما يزيل هذه الشكوك مدعمًا ذلك بالأدلة. وبيان ذلك قوله: (فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) رجح أبو حيان فاطر صفة لله. ثُمَّ أنَّ الله لا يقع فيه تكّذيب أو شك؛ لأنّه خالق العالم والوجود.

ثانيًا: بيان لطف الله بهم وإحسانه عليهم أن دعاهم إلى الإيمان من أجل أن يغفر لهم وذلك لقولهم (يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم) أي يدعوكم للإيمان ليغفر لكم.

ثالثًا: (مِّن ذُنُوبِكُمۡ) من للتبعيض أي أنَّ الله يغفر لكم ما بينكم وبين الله، ويخرج ما بينكم وبين العباد من مظالم وذنوب. وهذا كلام صحيح؛ لأنَّ الإسلام يُجبُّ ما قبله.

رابعًا: على الداعية بيان مصير الملحدين الّذين يجالدون بالدلائل الدعوية يوم القيامة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾[فصلت:40].

وفسر أبو حيان: بعد أن فرغ الله من بيان أنَّ الدعوة إليه من أعظم الأعمال، موضحًا ذلك بالأدلة والبراهين، عاد الله إلى تهديد من يجادل في هذه الدلائل، ثمَّ ذكر الله أنَّه بصيرٌ بهم وأنَّهم لا يخفون ولا يعجزون عليه (الأندلسي، 2010، صفحة 478/7).

وهذه الدلائل هي:

أ. دليل الفطرة على وجود الله

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:30].

فسر أبو حيان: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ) والمعنى: "فأقيموا وجهوكم ليس مخصوصًا بالرّسول وحده، وكأنه خطاب لمفرد أريد به الجمع، أي: فأقم أيّها المخاطب، ثم جمع على المعنى؛ لأنّه لا يراد به مخاطب واحدٌ" (الأندلسي، 2010، صفحة 167/7).

يرى الباحث: أنَّ الأصل بالفطرة "الخلقة أو الصبغة" الّتي خلقها الله مع الإنسان، وفي الآية الكريمة جاءت منصوب على الحال. والمعنى: أبقى ملتزماً على فطرة الله. وعليه تكون الفطرة أي ما يولد مع الإنسان للانتباه على مخلوقات الله، والاستدلال بها على وجوده، وعلى الداعية استغلال هذه الفطرة الموجودة داخل كل إنسان عند دعوته، بتحفيز هذه الفطرة لاستدلال المدعو على وجود الخالق.

ب. دليل الخلق: الدلالة على أنَّ الله هو خالقهم

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور:35].

فسر أبو حيان الآية: أي خلقوا من دون شيء كالجماد، فلا يقع عليهم أوامر الله ونواهيه، كالجمادات (الأندلسي، 2010، صفحة 149/1).

يرى الباحث: أنَّ (أَمْ) هنا استفهامية لم تأتي بمعنى الاستفهام، لأنَّ الله هو الخالق، وهو من خلقهم، بل جاءت بمعنى الإنكار، والتوبيخ والتعجب.

فالله هنا ينكر عليهم أنّهم خلقوا من دون شيء كالجماد، ثم يحدث التوبيخ بسبب اعتقادهم أنَّ الله لم يخلقهم.

وقوله: (مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) أي من غير خالق، وقوله: (أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) إنكار على أنهم هم الخالقون، فلا يقع عليهم استجابة أوامر الله ونواهيه.

يُعد دليل الخلق من أقوى الأدلة على وجود الله؛ لأنَّه لا يمكن أن يخلق البشر من غير خالق، ويرتبط هذا الدليل بالعقل، ولا بد للعقل من أن يدرك أنّ هنالك فاعلاً خالقاً كل هذه المخلوقات، والداعية إلى الله وجب عليه استغلال هذا الدليل للدعوة إلى الله وخصوصًا عند دعوةٍ الملحد المنكر لوجود الله سبحانه وتعالى.

القسم الثاني: المشركون الّذين يعبدون مع الله آلهة أخرى

وهم الّذين يعبدون مع الله آلهة أخرى، كالمظاهر الطبيعية وغيرها، تحدث أبو حيان عن كيفية دعوتهم من خلال تفسير آيات من سورة الأحقاف، والناظر إلى تفسير هذه الآيات يستنتج أنَّ أبا حيان اتبع أسلوب تحديد الإله المعبود ثم علاج ذلك من خلال مجادلتهم بهذا الإله.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف:4-5]

ويتضح من كلام أبي حيان أنَّ أفضل أسلوب في دعوتهم هو أسلوب الداء والدواء.

أسلوب الداء والدواء

يرتبط هذا الأسلوب بالقلوب، وهو أن يقوم الداعية بذكر الداء، ومن ثُمَّ مجادلتهم بهذا الداء للوصول إلى الدواء المناسب.

وفي علوم الصحة وأصنافها تعتمد مهام الطبيب على تحديد أو ذكر الداء أولًا ثم يقوم بتشخيص العلاج المناسب لهذا الداء، وفي سبيل الدعوة إلى الله يُعتبرُ الداعية طبيب القلوب الّذي يقع على عاتقيه معالجة هذه القلوب، وعليه أن يسلك نفس طريقة طبيب الأجسام في معالجة هذه القلوب.

وظهر ذلك عند أبي حيان حينما فسر قول الله (قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)، أي أخبروني عن الذّين تعبدونهم من دون الله، ورجح أنَّ المراد هنا هي عبادة الأصنام، والاستفهام في (أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ) للتوبيخ، ثُمَّ يطلب منهم أن يأتوا بمثل هذا الكتاب للدلالة على أعجازهم (الأندلسي، 2010، صفحة 55/8).

وأصل الداء في هذا الصنف من الكافرين هو: عبادة الكافرين لإله آخر مع عبادتهم لله، رغم معرفتهم بالله سبحانه وتعالى، ومن أسباب هذا الداء أيضا هو جحود هؤلاء الكافرين، وعدم دخولهم الإسلام الكامل؛ لاعتقادهم بأنَّ هذه الآلهة تقربهم إلى الله.

والداء في الآية السابقة هو عبادة الكافرين للأصنام، في قوله تعالى (قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ)؛ لاعتقادهم أنَّها تقربهم إلى الله.

ويُعد المجادلة من أسما مراحل العلاج في هذه المرحلة، وهي تقوم من خلال ذكر هذه الإلهة ومجادلتهم بما تستطيع أنَّ تقدمهُ لهم هذه الإلهة حتى يكتشف المدعو أنَّ هذه الأصنام لا يوجد لها أي نفع، بل إنَّها تضرهم يوم القيامة حينما تشهد عليهم بعبادتهم لها، وجحدهم عن الإيمان.

والمجادلة في هذه الآية: جادل الله هؤلاء الذّين يعبدون آلهةً أخرى مع الله، بأن يخبروا الله بماذا خلقوا في هذه الحياة الدنيا، ثمَّ جادلهم بأن تأتي ألِهتهم بمثل هذا الكتاب وهو القرآن الكريم يشهد بإنَّ ما جاءوا به هو الحق، أو علمٍ كما وهب الله الأولين.

ظهرت المعالجة في الآية التالية حينما ذكر أنَّ هذه الأصنام جمادٌ، وهي غير قادرة على مساعدتهم، بل ستكون عليهم شاهداً يوم القيامة، والحل الأمثل وهو الإيمان بالله القادر على خلق كل شيء.

المطلب الثاني: المدعو من الكفار المرتدين

أ. معنى الرّدّة

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:217]

تحدث أبو حيان في الآية السابقة عن معنى الردة، يقول أبو حيان: (يَرْتَدِدْ) بمعنى افتعال الرجوع، والافتعال هنا بمعنى التَّعمُّل والتَّكسَّب، أي من دخل هذا الدين يَبعُدُ أن يكفر به. و(مِنكُمْ) حال من الضمير المستتر في يرتدد، وحرف الجر (من) في (مِنكُمْ) للتبعيض. ومتعلق القول الرجوع عن الدين الإسلامي الّذي هو دين الحق. والفاء في (فَيَمُتْ) حرف عطف عطفت الشرط الأول على الآخر، ومعنى ذلك تّتبعُ الموت بعد الارتداد. فجزاؤه إحباط العمل في الدنيا والأخرة. وبيّن أبو حيان أنَّ جزاءهُ في الدنيا القتل وفي الآخرة بما يستحقه من العذاب السّرمديّ (الأندلسي، 2010، صفحة 159/2).

وكلام أبي حيان صحيح. والردة من الرد أي الرجوع.

وفي معجم مقاييس اللغة: "الراء، والدال أصل واحدٌ وهو مطرد منقاس، وهو رجوع الشـــيء، تقــول: رددت الشَّيء أرده ردًّا. وسمى المرتدُّ لأنَّه رد نفسه إلى كفره" (فارس، 1979، صفحة 386/2).

ونحن في لغتنا نقول: رددت الغرض إلى صاحبهِ أي أرجعته إليه، ونقول للرجل الّذي يرجع امرأته إلى عصمته بعد الطلاق: رد أمراته، وفي صيغة أخرى نقول للمرأة المطلقة المرأة المردودة. وعلى جميــع الأحوال والأقوال يبدو أنَّ الارتداد مرادف الرجوع.

ب. قبول توبة المرتدين

قـــال تعـــالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[آل عمران:90].

تحدث أبو حيان في الآية السابقة عن قبول توبة المرتدين. أجمع أبو حيان أنَّ هذه الآية نزلــت بــاليهود المرتدين الَّذين كفروا بالنبي عيسى بعد إيمانهم بــه وإيمــانهم بالإنجيــل، وقولــه: (ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا)، أي ازدادوا كفراً بعد كفرهم بالنبي محمد – صلى الله عليه وسلم– بعد نعتــه (الأندلســي، 2010، صــفحة 542/2).

وخلاف القول في هذه الآية هو في قوله (لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ) رجح أبو حيان في هــذه الآيــة تفســيرين الأول: وهو أن يكون لهؤلاء المرتدين توبة، ولم يقبلها الله منهم، وذلك في باب الاختصاص؛ لأنَّ التوبة تقبل من كل كافرٍ، سواءٌ أكان كافرًا من الأساس، أم كفر بعد إيمانه، أو ازداد فــي الكفــر. والتفســير الثاني: لا يوجد لهم توبة، وذلك أنّه نفى القبول، والمعنى لا توبة لهــؤلاء فتقبــل (الأندلســي، 2010، صفحة 543/2).

يرى الباحث: أنَّ التفسير الثاني أقرب للصواب، إذ أنَّ المراد في الآية الكريمة هو اخبار الله للكافرين، وللذين ازدادوا كفرًا لن يوفقهم الله إلى توبة يقبلها منهم، بل يختم الله على قلوبهم حتى يزدادوا في طغيانهم، ليجزيهم الله على أعمالهم شر جزاء. ودلالة ذلك قول الله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:110].

ثُمَّ أنَّ الكافرين الّذين جحدوا بكفرهم وازدادوا بالكفر، من الصعب جدًا أن يتوبوا إلى الله، وذلك بسبب الإصرار على معصية الله، وجحدهم بإيمانهم، وأن كان لهم توبة فهذه التوبة إنَّما هي بألسنتهم وليس بقلوبهم.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الله لم يقبل التوبة عند حضور الموت، مثلما فعل مع فرعون كما جاء في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:90-91].

ج. سبب ارتدادهم

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد:25].

ذكر أبو حيان في تفسير هذه الآية الكريمة عن سبب نزول هذه الآية حيث يورد أبو حيان تفسيرين أحدهما لقتادة وهو: أنَّ هذه الآية نزلت بقوم من اليهود، علموا غاية الرسول الكريم من التوراة، وعندما باشر الرسول غايته حسدوه، فارتدوا عن الهدى، والتفسير الآخر لابن عباس وغيره: نزلت بمجموعة

من المنافقين، كانوا قد دخلوا في الإسلام، ولم يدخل الإيمان قلوبهم، ثم يرجح أبو حيان أنَّ هـذه الآيـة جاءت بكل من يدخل في لفظها (الأندلسي، 2010، صفحة 82/8).

يرى الباحث: أنَّ الكلام على التفسيرين معًا، وذلك لأنَّ الآية جمعت بين الّذين ارتدوا، والّذين تبين لهـم الهدى، واعتمد قتادة في تفسيره بمن نزلت هذه الآية على قولـه: (مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى) بينمـا اعتمد ابن عباس في تفسير على اظهار صفة هؤلاء القوم.

وفي تفسير قول الله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم) أي الَّذين رجعوا على الكفـر (المرتـدين)، وقوله (مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى) أي أهل الكتاب، وكلا من المرتدين وأهل الكتاب من المنـافقين، وعليه يدخل كلاهما في هذا الباب.

والظاهر في سبب ارتدادهم عن الإيمان بالله ظهر من خلال حديث الله أنَّ السبب في ذلك هو الشيطان، وأنَّه هو من يسول لهم الظروف للارتداد.

وفي معجم مقاييس اللغة (سَوَّلَ) من سَوِلَ (والسين، والواو، واللام أصلٌ واحدٌ) يدلُّ علـى الاسـترخاء. (فارس، 1979، صفحة 118/3). وقوله (وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ) مبنيًا للفاعل، بفـتح الألـف، أي تعـود علـى الشيطان.

يرى الباحث: أنَّ الاسترخاء يأتي من باب الراحة والزينة، والتسهيل، وأملى لهم: أنَّ الشيطان هو مـن يملي عليهم هذه الضلالة، والمعنى: أنَّ الشيطان هو من يسهل ويزين لهم سوء أعمالهم ليظهرهـا لهـم بأحسن صورة، ثُمَّ يمدهم بالأعمال الباطلة والأقوال الفاسدة (أسباب الضلال) ليرتدوا عن هذا الدين.

ونلاحظ من خلال ما سبق أنه لا يختلف الكفار المرتدون عن من سبقوهم بالدعوة إلى الله، إذ أنَّهم يقـع عليهم ما يقع على الكفار الأصليين، ويمكن للداعية استخدام الأساليب السابقة في دعوتهم إلى الله، مـع تذكريهم ما يوجب عليهم عند الرجوع إلى دين الحق.

المطلب الثالث: المدعوون من أهل الكتاب

التعريف بأهل الكتاب في تفسير البحر المحيط

قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ [الأنعام:156].

رجح أبو حيان أنَّ الطائفتين "هما أهل التَّوراة والإنجيل اليهود والنّصارى بلا خلاف" (الأندلسي، 2010، صفحة 257/4).

وهاتان الطائفتان جاء ذكرهما في القرآن الكريم تحت مسمى أهل الكتاب، وقد أُطلق عليهم هذا المصطلح؛ لأنّهم أصحاب كتاب أُنزل من عند الله سبحانه وتعالى، وليس بسبب التسمية أنَّهم أصحاب علم بالكتاب كما ذكر البعض.

أولًا: الديانة اليهودية

وهي ديانة الّذين يَدَّعون أنّهم من اتباع النبي موسى- عليه السلام-.

ورجح أبو حيان أنّ سبب تسميتهم هو وصف النبي موسى لهم ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف:156] (الأندلسي، 2010، صفحة 399/4). وعند ابن فارس" هاد يهود، إذ تاب هودًا" (فارس، 1979، صفحة 18/6).

ويستمد هؤلاء معتقداتهم من التوراة والتلمود:

التوراة: كلمة يونانية جاءت بمعنى الناموس أو الشريعة، وفي الاصطلاح اليهود: جاءت من اعتقادهم أنَّ النبي موسى هو صاحب الأسفار الخمسة، وأنَّه هو من كتبها بيده وهي: سفر الأولين، والتكوين، والخروج، والتثنية، والعدد. وعند المسلمين هو كتاب المنزل على النبي موسى (الخلف، 1997، صفحة 65)

التلمود: والمراد بها تعليم ديانة اليهود، وفي اللغة: كلمة تلمود تتكون من مقطعين الأول: متن وتطلق على المشناة وتعني المعرفة، والأخرى: شرح وتطلق جمارّا وتعني الإكمال. وهي الشريعة اليهودية التي يتناقلها الخامات الفرنسيون سرًا بين الأجيال؛ خوفًا من ضياعها (الخلف، 1997، صفحة 100)

ثانيًا: الديانة النصرانية

وهي ديانة الذين يَدَّعون أنَّهم من اتباع النبي عيسى –عليه السلام–، واختلف أهل العلم بسبب تسميتهم النصارى: قيل لأنَّهم نصروا النبي عيسى، وقيل: نسبة إلى الناصرة الّتي ولد فيها المسيح.

وعند ابن فارس (نصر): (النون، والصاد، والراء) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إتيان الخير (فارس، 1979، صفحة 435/5).

ويستمد هؤلاء معتقداتهم من العهد القديم وهي: التوراة، والعهد الجديد: ووهي مجموعة الأناجيل.

ويمكن دعوتهم عن طريق:

أ. بيان حقيقة بعض المعتقدات الخاطئة لديهم

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾[الأنعام:100-101].

ركز أبو حيان في حديثهِ عن الآيتين السابقتين على مسألة التوحيد. حيث رجح أبو حيان أنَّ الضمير في (وَجَعَلُوا۟) عائد على أهل الكتاب، حيث أنّهم افتروا على الله أنَّ له البنين والبنات، من غير علم أو معرفة بحقيقة هذا الافتراء.

وبعد أنَّ بين الله ما افترى عليه هؤلاء، بين الله لهم حقيقة هذا الافتراء حيث ينزهُ الله نفسه عن هذا الافتراء، وقوله: (سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ) من التعالي والارتفاع المجازي، والمعنى: أنه مقدس عن مثل هذا الافتراء، والله منشئ ومبدع هذا الكون كيف يكون له البنين والبنات وهو خالق وعالم كل شيء (الأندلسي، 2010، صفحة 197/4).

وعليه، فعلى الداعية التركيز في دعوته على إظهار حقيقة بعض المعتقدات الخاطئة لديهم، والتركيز في دعوتهم على العقيدة الإسلامية، وبيان مسألة التوحيد؛ لأنَّ النصارى خالفوا فيها المسلمين من غير علم أو معرفة، وعلى الداعية بيان حقيقة ذلك لهم.

ب. مجادلتهم بالّتي هي أحسن

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت:46].

تعتبر المجادلة من المسالك الدعوية الّتي يعتمد عليها الداعية في دعوته، وفي سبيل الدعوة إلى الله قد يحتاج الداعية إلى مجادلة بعض المدعووين في الدعوة إلى الله، فإذا اقتضى الأمر إلى المجادلة فعلى الداعية أن يقوم بذلك بحسن رفقٍ ولين قلبٍ وقول، معتمدًا بذلك على إظهار الأدلة العقلية والنقلية التي تقوم بدور رد الشك والباطل عند المدعو؛ لقبول هذه الدعوة.

ج. استخدام الأدلة والحجج في دعوتهم

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾[آل عمران:199].

في بداية الآية يورد أبو حيان تفسيرات عن السَّدي، والحَسَن، وابن عباس وغيرهم الكثير. ثُمَّ فسر أبو حيان أن (من) في قوله (لَمَن) موصولة، ويجاز أن تأتي نكرة موصوفة، وعلى المعنى (لقوماً). وعلى تفسير أبو حيان جعل كلام ابن عباس ومجاهد الأقرب للصواب وهو: أنَّها نزلت بالّذين أمنوا من أهل الكتاب (اليهود، والنصارى). وقوله: (يُؤْمِنُ) بالمضارع للدلالة على الاستمرارية والديمومة، ومعنى ذلك آمنوا ولا يزال أيمانهم مستمراً. ووصفهم بالخاشعين للتذلل والخضوع لله عز وجل، وختم القول إنَّ هؤلاء لهم ضعف ثواب إيمانهم، وذلك يوم القيامة (الأندلسي، 2010، الصفحات 3/155-156).

ويمكن للداعية الاستفادة مما سبق بإقامة الحجة على الكافرين من أهل الكتاب، وذلك ببيان أنَّ هنالك من آمن من أهل الكتاب، وهؤلاء لهم ثواب مضاعف عند الله يوم القيامة، وأنَّ ما جاء به محمد هو الحق، وهو موافق لما جاء به عيسى وموسى.

في مستهل الحديث عن هذا الفصل وضح أبو حيان أنَّ المدعووين إلى الله أصناف وفئات، ثمَّ جعل أبو حيان خطاب الدعوة موجهاً للمسلمين وغير المسلمين، وبدأت خطاب الدعوة مع غير المسلمين؛ لأنهم المطالبون بقبول هذه الدعوة.

وقسم أبو حيان هذا الصنف إلى فئات، وجعل الفئة الأولى: المدعوون من الكفار الأصليين، وهم قسمان: الأول: الملحدون وعرف أبو حيان الإلحاد: بالميل عن القصد، وأجمع أبو حيان أنَّ دعوة هؤلاء قائمة من خلال الأدلة كدليل الفطرة على وجود الله، ودليل الخلق. الثاني: المشركون الّذين يعبدون مع الله آلهة أخرى: وبيّن أبو حيان أنَّ أفضل أسلوب لدعوتهم هو أسلوب الداء والدواء.

والصنف الثاني: المدعوّن من الكفار المرتدين، وبيّن أبو حيان أنَّ الارتداد هو افتعال الرجوع والافتعال بمعنى التكسب والتعمل أي من دخل هذا الدين يَبعدُ أن يكفرَ به، وبيّن أبو حيان في حديثه عن توبة هؤلاء بيّن أبو حيان أنَّ هنالك تفسيرين الأول: أن يكون لهم توبة ولم يقبلها الله منهم، والثاني: أنّ الله لم يوفقهم لتوبةٍ يرضاها عنهم، وختم أبو حيان أنَّ الشيطان هو السبب في ارتدادهم إلى الكفر بعد الإيمان.

والصنف الثالث: أهل الكتاب، وبيّن أبو حيان أنَّهم فئتان اليهود والنصارى ووضح أبو حيان أن دعوتهم قائمة على بيان بعد المعتقدات لديهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، واستخدام الأدلة والحجج في دعوتهم.

المبحث الثاني: المدعوون من المسلمين

المطلب الأول: المدعوون من الملأ

1. معنى الملأ في تفسير البحر المحيط

جاء في معجم مقاييس اللغة أنَّ الملأ من (ملى): وتعني الزمن الطّويل. ومنها الملأ: وهم أشرف الناس، وسموا بالملأ لامتلائهم كرمًا (فارس، 1979، صفحة 346/5).

وفي تفسير البحر المحيط: (الملأ) هم أشراف القوم وساداته وهم العصاة لله ورسوله بسبب حبهم للدنيا، والعلو والجاه فيها (الأندلسي، 2010، صفحة 324/4).

ولا خلاف في ذلك: والمعنى المراد في هذا المطلب(الملأ): هم أكرم الناس وأشرفهم، وهم رؤساء القبائل وساداتها، إذ أنَّهم البارزون وأصحاب النفوذ في كل قبيلة، وأُطلقَ عيلهم الله لقب الملأ في كتابهِ العزيز؛ للتفريق بينهم وبين عامة الناس، وليس بسبب استحقاقهم لهذا المطلب.

2. سبب تفريق الله بين الملأ عامة الناس

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف:60].

فسر أبو حيان (فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ): أي الذهاب عن طريق الحق، والجهل والابتعاد عن البَيِّنة والحجة الواضحة (الأندلسي، 2010، صفحة 324/4).

وأرى: أنَّ أبا حيان أراد أن يوضح سبب تفريق الله بين الملأ وعامة الناس، إذ إنَّ الملأ هم الّذين حَرضوا وتصدوا لدعوة النبي، وهم من جعلوا عامة الناس تحارب النبي ودعوته، كما أنَّهم هم من نسب

الضلال إلى النبي، وهذا منطقهم في التصدي لهذه الدعوة، فهم سادات القوم وأصحاب السلطة، والنفوذ لذلك جعل الله منهجًا واضحًا لدعوةٍ هؤلاء يختلف عن المنهج المتبع مع عامةٍ الناس.

3. أسباب رفض الملأ للدعوة إلى الله

ورد لفظ الملأ بالمعنى المراد في هذا المطلب بما يقارب سبعة عشر موضعًا، وعند تأمل هذه المواضع نجد أنَّ أبا حيان ذكر أسباب عداوة هؤلاء لدعوة النبي، ورفضهم لقبول دعوة الإسلام ومن هذه الأسباب الجاه وحب الرئاسة، والكبر.

جمع أبو حيان الصفات الّتي جعلت هؤلاء يرفضون استجابة أمر الله ورسوله ومن هذه الصفات (الكبر، وطلب الرئاسة والعلو فيها)، وسنتحدث عن هذه الصفات في التفصل كما جاء عند أبي حيان.

أ. الجاه وحب الرئاسة

ذكرنا أنَّ من صفات الملأ الجاه وحب الرئاسة، وتسيّر النفوذ والتسلط على الناس، والمعروف عن الملأ أنهم يحاربون ويرفضون كل ما يهدد ملكهم، أو يسلب جاههم وسلطانهم، ورفض الملأ قبول الدعوة إلى الله؛ لأنهم ظنوا أنَّها سوف تسلب ملكهم، ومكانتهم داخل المجتمع، وتجعلهم بمنزلة عامة الناس.

تحدث أبو حيان في بعض الآيات عن الملأ وحبهم للجاه والسلطة والرئاسة قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس:75].

رجح أبو حيان أنَّ هذه الآية نزلت بقوم فرعون عامة، ولم تختص بالملأ من قوم فرعون، وفسر (فَٱسْتَكْبَرُوا۟) أي تعاظموا عن قبول هذه الدعوة. ثم رجح أنَّ أعظم الكبر هو "أن يتعاظم العبيد عن قبول رسالة ربهم" (الأندلسي، 2010، صفحة 180/5).

رفض فرعون وملؤه دعوة النبي موسى، واستكبروا عن الانقياد لها بسبب حبهم للجاه، وبـــرروا ســـبب رفضهم واستكبارهم عن قبول هذه الدعوة هو أنَّ موسى وأخوه يريدان اخراجهم عن دينهم إلـــى ديـــن جديد، وأنَّهما يريدان أن تكون لهم السلطة والجاه.

وعليه يظهر سبب رفض فرعون لقبول هذه الدعوة هو الجاه وحب الرئاسة والعلو في هذه الحياة الدّنيا؛ لأنّ فرعون اعتقد أنَّ قبول هذه الدعوة سبب بنزع السلطة والجاه منه.

قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾[ص:6].

يذكر أبو حيان تفسيراً عن القفّال: أنَّ مفردة (يُرَادُ) تستخدم للتخويف والتهديد. ويفسر أبو حيان ذلـــك: "أنّه ليس غرضه من هذا القول تقريرًا للدين، وإنَّما غرضه أنَّ يستولي علينا، فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد" (الأندلسي، 2010، صفحة 369/7).

وهذا الكلام صحيح. ويراد للتحذير، والتحذير في الآية السابقة هو تحذير الملأ من قريش إلى قومهم بأن محمداً يريد أن يعلو عليكم فاحذروا أن تطيعوه.

ب. الكِبْر

قـــــال تعـــــالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:14].

فسر أبو حيان في الآية الكريمة أنّ سبب عدم قبول فرعون وملئه لدعوة النبي موسى هو تكبرهم علـــى النبي موسى، على الرغم من أن أنفسهم أدركت صدق هذه الدعوة.

4. كيفية دعوة الملأ إلى الله

نلاحظ مما سبق أنَّ إقناع الملأ لأقوامهم بعدم قبول هذه الدعوة قائم على إثارة الشبهات والتشكيك بصحة هذه الدعوة من خلال تزيين العقائد الخاطئة لعامة الناس، وتكراراها عليهم حتى تصديقها والعمل بها كالمعتقدات الثابتة، وجعلهم يدافعون عنها كالحقائق الثابتة والصادقة.

والمقصود بالشبهات: هو إثارة الشك في نفوس عامة الناس؛ لعدم تصديق هذه الدعوة وقبولها سواء أكانت إثارة الشبهة في صحة هذه الدعوة، أو في الدين، أو في الداعية.

والمتتبع لسنة رسول الله يجد أنَّ إثارة الشبهات ليست حديثة العصر، بل هي أمرٌ قديم ومتوارث عانى منه الرسول الكريم، وعلى الداعية أنَّ لا يستغرب من هذا الأمر، ثُمَّ عليه اختيار الأسلوب المناسب في كيفية دعوة هؤلاء ورد الشبهات.

ومن خلال تفسير أبي حيان لبعض الآيات تبين أنَّ أبا حيان كان يحدد تلك الشبهات ثم يقوم بالردّ عليها، وذلك وفق الآتي:

1. الشبهات الخاصة بالدعوة

أ. وصفهم للدعوة أنَّها مخترعة من الداعية

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:103].

تحدث أبو حيان في الآية الكريمة أنَّ قريشاً وصفت دعوة النبي بأنها مخترعة من عند النبي، وليست من عند الله.

وفسر أبو حيان: أنَّ الخطاب موجه لفظًا للرسول الكريم، والمراد هو أُمّة النبي محمد، وقوله (لِّسَانُ) رجح أنّ معنى اللسان هنا هو اللغة. ورد أبو حيان عليهم أنَّ "لسان الرجل الّذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمي غير بين، وهذا القرآن لسان عربيٌّ مبين ذو بيان وفصاحة" (الأندلسي، 2010، صفحة 519/5).

يرى الباحث: أنَّ الملأ من أهل قريش كانوا أفصح العرب وأبلغهم علمًا، وأهل الكلام شعرًا ونثرًا، وقد عجزوا على أنَّ يأتوا بمثل هذا الكتاب، فكيف لعجمي أن يأتي بمثل هذا الكتاب.

ب. وصفهم للقرآن بأنَّه أساطير الأولين

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾[الأنعام:25].

تحدث أبو حيان عن هذه الآية أنَّهم جادلوا النبي بأن هنالك شكاً بالقرآن الكريم. وفسر أبو حيان (يُجَادِلُونَكَ) أي نازعوا وخاصموا النبي بالحجج الكاذبة حتى وصل الأمر بهم إلى المجادلة، وأساطير الأولين: من باب الشك والتكذيب بكتاب الله (الأندلسي، 2010، صفحة 103/4).

ورد أبو حيان عليهم: أنَّ نزاعهم قائم على المسموع من الرسول الكريم وهو (القرآن). وانتهى الاحتجاج عندهم من غير دليل واضح أو برهان مبين على ما افتروه، وقوله (حَتَّىٰ إِذَا): جاءت حتى هنا حرف ابتداء وليست جارة أو جملة شرطية أو في موضع جر، والعرب تقول "ضربت القوم حتى زيدًا ضربته"، جاءت حرف ابتدأ وما بعدها مبتدأ وأن كان منصوب (الأندلسي، 2010، الصفحات 103/4-104).

2. الشبهات الخاصة بالداعية

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾[الأعراف:60]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف:109]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[الأعراف:66].

نلاحظ من خلال هذه الآيات اعتماد الملأ بوصف الداعية بأوصاف باطلة تطعن في شخصية الداعية وصدقه.

فسر أبو حيان أنَّ الملأ من قوم نوح وصفوا النبي نوح بالضلال المبين: أي بالابتعاد عن طريق الحق والصواب. وفسر أبو حيان أنَّ قوم هود وصفوا النبي هود بالسفاهة: أي بقلة الحلم، وسفاهة العقل؛ لأنّه يريد أن يجعلهم يتركون دين آبائهم إلى دين أخر. وفسر أنَّ قوم فرعون وصفوا النبي موسى بالساحر العليم أي" بالغ الغاية في علم السّحر وخُدعهِ وخيالاته وفنونه". يُنظر (الأندلسي، 2010، صفحة 358.327.324/4).

جمع أبو حيان خطوتين في كيفية الرد على هؤلاء: أولًا: من خلال نسب الأنبياء هذه الأقوام لهم، فلم يتبرأ الأنبياء من أقوامهم مثال ذلك: نوح (يا قوم)، وعلى لسان هود (يا قومي)، وهذا له دور كبير في تيسير نفوس هؤلاء، وإيقاف احتجاجهم بالباطل. ثانيًا: نفي الأنبياء لما وقع عليه من صفات مثل قول النبي نوح (ليس بي ضلالةٌ)، وقول النبي هود (ليس بي سفاهةٌ).

ورجح أبو حيان: أنَّ النفي هنا "جاء في غاية الحسن من نفي أن يتلبس به". ولما نفي هذا الالتباس، دل إذن أنّه على الصراط المستقيم؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو من أحد الشيئين: الضلال أو الهدى" (الأندلسي، 2010، صفحة 324/4).

المطلب الثاني: المدعوون من جمهور الناس

1. معنى جمهور الناس واستجابتهم للدعوة

جاء في معجم مقاييس اللغة أنَّ (جُمهُور) من كلمتين الأولى: جمر (والجيم والميم والراء أصل واحد يدل على التجمع)، والثانية: جهر (والجيم والهاء والراء أصل واحد وهو إعلان الشيء وكشفه وعلوه)، والجمهور: "شيء متجمعٌ عالٍ" (فارس، 1979، الصفحات 4/477-506).

والمراد بجمهور الناس هنا: عامة الناس ومعظمهم دون الملأ، وهم الأكثرية في المجتمع، وعادة ما يكون هؤلاء تابعين للملأ، وهذه الفئة من أوائل من دخل إلى الإسلام ومن أسرع استجابة لقبول هذه الدعوة، لأنَّهم من اتباع الأنبياء وهم الفقراء والضعفاء في الأرض والباحثين عن العدل والانصاف.

وذكر القرطبي: أنَّ من أسباب سرعة استجابة هذه الفئة هو تجردهم من أسباب عدم قبول الملأ للدعوة (الجاه وحب الرئاسة، والكبر) (زيدان، 2002، صفحة 391) .

2. أسباب رفض جمهور الناس قبول الدعوة

في مستهل الحديث عن هذه الفئة ذكرنا أنَّهم من أسرع الفئات قبولاً لهذه الدعوة، ثم أنَّ فرص استجابتهم للدعوة كبيرة جدًا؛ لأنَّهم أُسِّسُوا على فطرة سليمة تقوم على التجرد من أهوال الملأ، وعلى الرغم من ذلك كان لا بد من أنّ ننوه إلى احتمالية تأثير هؤلاء بالملأ واتباعهم مما يدفعهم إلى رفض وعدم استجابة هذه الدعوة.

ودلالة ذلك قال تعالى:﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾[الزخرف:54].

تحدث أبو حيان في هذه الآية عن استغلال فرعون ضعف عقول من معه لدعوتهم للضلال، ورجح أبو حيان أنَّ هذه الآية نزلت بفرعون ومن معه. وقوله (فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ): "أي استجهلهم لخفة أحلامهم" (الأندلسي، 2010، صفحة 24/8).

والظاهر أنَّ فرعون استغل قلة العلم لدعوة قومه للضلالة، والمعروف عن فرعون أنَّه جمع بين حب الجاه والرئاسة والكبر، والأموال، مع قلة علم قومه وضعف حلمهم لدعوتهم والتجبر عليهم؛ لتصديق كذبهِ ونفاقه.

3. كيفية دعوتهم إلى الله

حدد أبو حيان أنَّ استجابة هؤلاء لقبول الدعوة قائمة على وقف تأثرهم بالملأ، وهذا قائم على تحديد أسباب تأثرهم بالملأ ومن ثم معالجة ذلك.

أ. الشبهات التي يزرعها الملأ في نفوس جمهور الناس: وقد تحدثنا عن هذا في المطلب السابق لكيفية إزالة الشبهات من نفوسهم.

ب. الخوف: من المعروف عن الملأ أنّهم أصحاب السلطة والنفوذ، وبيدهم القوة والمال، لذلك هم القادرون على ترهيب عامة الناس وتخويفهم من قبول هذه الدعوة.

ودلالة ذلك قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس:83].

تحدث أبو حيان في هذه الآية على أنَّ الخوف من فرعون جعل قلة قليلة من الذين آمنوا مع موسى يظهرون إيمانهم. وفسر أبو حيان أنَّ حرف الفاء للتعقيب والمعنى: أن هذا الإيمان جاء مباشرة بعد قصة الإلقاء، والضمير في قوله: (قَوۡمِهِۦ) عائد على موسى وليس على فرعون، وعلى قول أبي حيان ليس المعنى أنَّه لم يؤمن أحد مع موسى، بل الخوف من فرعون جعل قلة قليلة من الّذين آمنوا مع موسى يظهرون إيمانهم (الأندلسي، 2010، صفحة 182/5).

يرى الباحث: أنَّ كلام أبي حيان صحيح. فالضمير عائد على موسى ولو كان عائدًا على فرعون لما ورد اسم فرعون في هذه الآية، ولجعل التركيب على (خوفٍ منه) وليس على (خوف من فرعون).

4. الاغراء بالمال

من الأمور التي كان يمتلكها الملأ ويتفاخرون بها هي المال والجاه، وكانوا يستغلون الفقراء من عامة الناس؛ لإغرائهم من أجل أن يتبعوهم ويرفضون دعوة الأنبياء.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:51].

فسر أبو حيان: قوله (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ) أي شرفاء القبط، وقوله (قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ) فيه إظهار من فرعون بأنه أفضل من موسى، وقوله (وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ) الأنهار أي الخلجان التي تمر من النيل. والواو في (وَهَٰذِهِ) واو الحال، و(جَرْيِ): صفة عطف، أو في موضع بيان عطف والمعنى: من تحت ملك وقهر فرعون، وقوله (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) أي لا تبصرون فضلي، وعجز موسى.

وعليه أراد فرعون في هذه الآية إغراء الفقراء والضعفاء بما يمتلكه من مال من أجل اطاعته وموافقته على الضلال، ويمكن دعوة هؤلاء من خلال إظهار أنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وأنَّ هذا لم يزيدهم إلا كفرًا وضلالًا.

المطلب الثالث: المدعوون من المنافقين

1. معنى النفاق في تفسير البحر المحيط

الأصل بالنفاق: ستر الكفر وإظهار الإيمان. وجاء في معجم مقاييس اللغة: النفاق من نفق (والنون والفاء والقاف أصلان صحيحان أحدهما يدل على انقطاع الشيء وذهابه، والآخر على إخفاء الشيء وإغماضه) (فارس، 1979، الصفحات 5/454-455). ويسمى صاحبهُ منافق لأنّه يخفي عكس ما يظهر.

وهو كذلك في تفسير البحر المحيط (الأندلسي، 2010، صفحة 182/1). إلا أنَّ أبا حيان أضاف أنَّ المنافق هو من يؤذي الله ورسوله سرًا (الأندلسي، 2010، صفحة 241/7).

2. أساس النفاق في تفسير البحر المحيط

جعل أبو حيان أساس النفاق هو (الكفر والجبن) حيث تحدث أبو حيان عن الآية الكريمة عن أساس النفاق وفسر قول الله تعالى:﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾[البقرة:14]، (لَقُوا) من اللقاء "والفعل منه لقي يلقي، وقد يقال لاقى، وهو فاعل بمعنى الفعل المجرد". والمعنى منه استقبال القريب، وفسر (خَلَوْاْ) من الخلو وهو الابتعاد عن الشخص (الأندلسي، 2010، صفحة 193/1).

يرى الباحث: أنَّ المراد في قول أبي حيان أنَّ المنافقين إذا استقبلوا المؤمنين قالوا آمنا، وإذا ابتعدوا عنهم قالوا لقرنائهم أنّنا معكم؛ والسبب في ذلك هو (كفرهم، وجبنهم) فالكفر هنا: هو ما يخفيه المنافق، والجبن: هو إظهار المنافق خلاف ما يبطن. وجعل أبو حيان المنافق أضل من الكافر وأضر؛ لأنّه امتاز عنه بالخداع والإيذاء.

3. كيفية دعوة المنافقين في تفسير البحر المحيط

بالاستناد إلى ما سبق وضح أبو حيان أنَّ النفاق يقوم على إخفاء الكفر، وإظهار عكس ما في القلوب، لذلك أوجد أبو حيان سبلاً مختلفة في دعوة هؤلاء إلى الله تقوم بالأساس على إظهار علامات النفاق، وصفات المنافقين ومن ثم علاج هذه الصفات، من خلال اختيار الأسلوب الدعوي الصحيح.

أ. ضعف القلب

قال تعالى:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[البقرة:10].

تحدث أبو حيان في هذه الآية على سبب قيام المنافقين بالنفاق، وفسر قوله (مَّرَضٌ): بالفتور والضعف. وفي هذه الآية مقابلة حيث يذكر الله حال الكفار بعدما ذكر حال المتقين وما حملوا من أوصاف الإسلام، وذكر ما آلوا إليه من بسبب ذلك وهو الهدى بالدنيا والفلاح في الآخرة. يُعقب الله ذلك ببيان حال الكفار وما آلوا إليه من العذاب في الدّنيا والآخرة، بين أنّ هنالك قسماً ثالثاً (المنافقين) وهم الّذين أظهروا الإسلام، وأخفوا الكفر. ورجح أبو حيان أنّ سبب نفاقهم هو ضعف القلب.

والداعية إلى الله إذا ما أراد النجاح في دعوة هذا الصنف من المنافقين أوجب عليه علاج ضعف القلب عندهم، وقد جاء في الذكر الحكيم ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد:28].

ولهذه الآية علاقة مباشرة بالقلب، وعلى الداعية الاستنتاج بالقرآن الكريم في دعوة هؤلاء وخصوصًا أنّ هذا الصنف يعرف حق المعروفة كلام الله وما يؤول إليه.

ب. الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف

قال تعالى:﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[التوبة:67]

تحدث أبو حيان في هذه الآية الكريمة عن فضائح المنافقين والمنافقات، وأنّهم ليسوا من المؤمنين، وحذر المؤمنين من صفات المنافقين، وفسر أبو حيان أنَّ قول الله (بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ) أنَّ (من) هنا ليست للتبعيض، بل بعضهم من بعض بالنفاق والحكم والمنزلة.

وسبب ترجيح أبي حيان أنَّ الكلام ليس على التبعيض؛ لأنّه معروف بعضهم من بعض بالنفاق والحكم والمنزلة (الأندلسي، 2010، صفحة 253/5).

قال سيد قطب: إنَّ المنافقين والمنافقات موجودون في كل زمان ومكان وأنّ أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم تختلف باختلاف الزمان والمكان إلا أنهم يرجعون إلى طبع واحد (باركمان، 2020، صفحة 40).

وأرى: أنَّ قوله (يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ) المنكر ما أنكره الشرع ونهى عنه، والمعروف ما أمر به الشرع. وقوله (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) أي لا يبذلون في سبيل الله. وقوله: (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) أي المخالفون لأوامر الله. وجاءت (إنَّ) مع ضمير الفصل (هُمُ) للدلالة على قصورهم على الفسق.

وتعتبر صفة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف من أخطر الصفات لما فيها من رفض ومخالفة لأوامر الله، وإخفاء الحقائق، وانتشار هذه الصفة يؤدي إلى انتشار الباطل، وإبطال الحقوق ويعتمد عليها المنافق في خداع ضعفاء العقل والإيمان، وتكاد هذه الصفة لا تخلو من أي منافق.

ووضح أبو حيان في الآية الكريمة قوله: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) أنّ الله وصفهم بصفة الفسق، بسبب أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف.

ورجح أبو حيان أنّ علاج هذه الفئة يقوم على طمأنة القلوب بذكر الله لقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[الرعد:28]، والاكثار من الصدقات لتزكية أنفسهم على فعل الخير قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾[التوبة:103].

ج. السخرية والاستهزاء بالدين

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة:65-66].

تحدث أبو حيان عن سبب استهزاء المنافقين بالرسول ومن معه. وفسر أبو حيان أنّ سبب استهزائهم بالرسول ومن معه الخوض واللعب، أي في غير جدٍّ. وفسر (أَبِاللَّهِ) فيه تقرير على استهزائهم بالرسول. ولم يعبأ الله باعتذارهم؛ لأنَّه جاء في موضع النفاق والكذب (الأندلسي، 2010، الصفحات 5/67-68).

وجاء المستهزاء به في موضع التقرير (أَبِاللَّهِ) للدلالة على اعتراف المنافقين باستهزائهم بالله؛ لأن الاستهزاء يستقيم بعد وقوعه وثبوته، وفائدة لا النهاية هنا هو طلب الله منهم عدم الاعتذار. وقد حرف تحقيق يفيد هنا التحقيق وهو لتأكيد كفرهم بعد إيمانهم، وحرف الجر (عن للتجاوز)، ومن في (منكم) للتبعيض، والمراد في قول الله تعالى أنّ الله يجاوز عن طائفة ما كانوا يعملون، ويعذب طائفة أخرى، وهذا فيه اختلاف باختلاف المعصية المرتكبة.

وبين أبو حيان خطورة هذه الصفة حيث فسر: (قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) أي خَرَجتُم عن ملة الإسلام، والأصل بالملة الإسلامية أنها تقوم على تعظيم الله ورسوله، والاستهزاء بهما يخالف هذا الأصل، مما يؤدي إلى الخروج عن هذه الملة.

ويقع على الداعية مهمة بيان عظم هذا الأمر للمنافقين، وبيان قدر الله سبحانه وتعالى، وتحذير المؤمنين من موالاتهم لهذه الفئة.

المطلب الرابع: المدعوون من العصاة

1. معنى العصاة في تفسير البحر المحيط

والأصل بالعصاة: هم فئة من فئات المدعووين، وهم الّذين تحقق عندهم شرط الإيمان وهو الإقرار بالشهادتين، ولكنهم لا يقومون بتحقيق هذا الشرط، فهم المخالفون لأوامر الله، وهم المقترفون بعض نواهيه (زيدان، 2002، صفحة 406)

وفي تفسير البحر المحط:

قال تعالى:﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾[طه:93].

تحدث أبو حيان في الآية الكريمة عن معنى (فَعَصَيْتَ). وفسر أبو حيان معنى (فَعَصَيْتَ) أي خالفت. (الأندلسي، 2010) وظاهر القول عند أبي حيان أنّ معنى عصيت أي خالفت أمراً من الأوامر. وهو على درجات حيث يختلف العصاة في نوع ودرجة المعاصي التي يرتكبونها.

2. أسباب وقوع العاصي بالمعصية كما ورد في تفسير البحر المحيط

أ. ضعف العقيدة

قال تعالى:﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾[الحجر:39-40].

تحدث أبو حيان في الآية الكريمة أنَّ سبب ارتكاب ذرية أدم المعاصي، وهو اغواء الشيطان لهم. وفسر (إِلَّا عِبَادَكَ) أي باستثناء عبادك فئة قليلة من ذرية أدم؛ لأنَّهم مخلصون له سبحانه وتعالى. ومن الناحية اللغوية: قرأ الكوفيون، والحسن، ونافع، والأعرج إلا بفتح اللام والمعنى: " إلا من أخلصته للطاعة أنت، فلا يؤثر فيه تزيني" (الأندلسي، 2010).

والطاعة ضد العصيان، والظاهر ضعف العقيدة عند العاصي تفتح الباب لإغــواء الشــيطان للعاصــي فيرتكب العاصي المعصية.

ب. الجهل

قال تعــالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ ﴾ [النساء:17].

تحدث أبو حيان في لآية الكريمة عن فضل الله سبحانه وتعالى بقبول التوبة عن الذين يعملــون الســوء بجهالة. وفسر أبو حيان إنما هنا تفيد الحصر، وقوله (إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ) ظهرت على حذف المضاف من المبتدأ والخبر، فيصيح التقدير إنَّ فضل الله هو السبب في قبول التوبة. وهذا فيه مخالفة لما جاء فيه الزمخشري حيث رجح أنّ التوبة واجبة على الله تعالى لمن يعمل السوء بجهالة. وفســر (ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ) السوء المعاصي، والجهالة أي "ذو سفهٍ وقلة تحصيل"، وارتكاب المعاصي هنا من باب ضــعف العقــل واتباع الهوى (الأندلسي، 2010).

والظاهر: أنّ الجهل بالدين؛ سببٌ في ارتكاب المعاصي، وذهب بعض أهل العلم من عصــى الله فهــو جاهل.

وأرى: كلام أبي حيان صحيح، فلا واجب على الله إلا تخليد الكافرين بالنار، أما قبول التوبة فلا واجب بها على الله. ومن يرتكب المعاصي فهو في المشيئة إن شاء غفر الله له، وإن شاء عذبه.

3. كيفية دعوة العصاة إلى الله كما ورد في تفسير البحر المحيط

أ. الموعظة الحسنة

وهي أحدى مسالك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعتبر من أهم العوامل المؤثرة على الإنسان؛ لأنها مرتبطة بالقلب، وتدخل في عموم إصلاح القلب والعقل، وهي في بابين:

- **التحذير والتنبيه**

تحذير العصاة من أثر ارتكاب المعاصي على الفرد والمجتمع، قال تعالى:﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[النحل:112]. فسر أبو حيان أنَّ سبب وقوع الجوع والخوف هو ارتكاب المعاصي.

تحذير العصاة من الاغواء وراء رحمة والطمع في غفرانه: وصف الله نفسه أنه غفور رحيم، ووصف نفسه أيضا أنه شديد العقاب.

- **الترغيب والترهيب**

وهذا من أهم الركائز التي اعتمد عليها الرُسُل في موعظة الناس ودعوتهم إلى الحق والابتعاد عن ارتكاب المعاصي، ولهذا الأسلوب أهمية كبيرة؛ لأنه مرتبط في النفس البشرية. قال تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾[الإسراء:9-10]

ب. ضرب الأمثال

ويعتبر أسلوب ضرب الأمثال من أهم الأساليب الدعوية لما فيه من وعظ للكافرين ونصح وإرشاد وتذكير للمؤمنين. وفي الآية قال تعالى:﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[النحل:112]. بين أبو حيان أن الله أراد بيان أثر ارتكاب المعاصي من خلال ضرب الأمثال لهم.

وعليه، وفي ختام المبحث الثاني من هذا الفصل: فقد تحدث أبو حيان عن المدعووين من المسلمين، ووضح أبو حيان أنهم على أربعة أصناف:

الصنف الأول: المدعوون من الملأ وهم عند أبي حيان أشراف القوم، وبين أبو حيان أنّ سبب تفريق الله بين الملأ وعامة الناس؛ لأنهم الّذين حرضوا وتصدوا للدعوة، وفي بيان سبب رفض الملأ للدعوة إلى الله الجاه وحب الرئاسة، والكبر، وذكر أبو حيان أنّ أفضل ما يقوم به المرء في دعوتهم هو إزالة الشبهات التي يثيرونها.

أما الصنف الثاني: المدعوون من جمهور الناس، وهم عند أبي حيان عامة الناس، وهم أسرع الأصناف استجابة للدعوة؛ لأنهم متجردون من أهوال الملأ، وفي بيان كيفية دعوتهم ووضح أبو حيان أنها قائمة على إزالة الشبهات التي زرعها الملأ في نفوسهم.

والصنف الثالث: المدعوون من المنافقين وهم عند أبي حيان الّذين يسترون الكفر ويظهرون الإيمان، وأساس النفاق عند أبي حيان هو (الكفر والجبن)، وبين أن دعوتهم تقوم من خلال إظهار علامات النفاق، ومن ثم معالجتها.

والصنف الرابع: المدعوون من العصاة وهم عند أبي حيان المخالفون لأمر الله، ومـــن أســـباب وقـــوع العاصي بالمعصية هي: ضعف العقيدة، والجهل، ودعوتهم قائمة من خلال الموعظة الحسنة، وضـــرب الأمثال لهم.

الخاتمة

لك الحمد يا ربي كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، الحمد الله الّذي هيء لي من أمري رشـــدًا، ومنَّ عليَّ بختام هذا البحث المبارك. وبعد:

إنَّ علم التفسير من أجل العلوم وأفضلها على الطلاق؛ لأنّه مرتبط بكلام الله عز وجـــل، ويُعـــد تفســـير البحر المحيط من التفاسير المهمة في باب تفسير كتاب الله من الناحية اللغوية، ومعرفة أوجه التفاســـير بالنحو والإعراب، وهذا يرجع لما للّغة من أهمية كبيرة في تفسير كتاب الله، ويعـــرض هـــذا البحـــث القضايا الدعوية عند أبي حيان.

والحديث عن هذا الموضوع يحتاج إلى كتب ومجلدات كبيرة قد لا يستوعبه مثل هذا البحث الّـــذي أرى أنَّ الباحث قصّرَ بالحديث عن مسائلهِ المطروحة، فالحديث عن قضية واحدة مع ذكـــر أقـــوال العلمـــاء عليها ومناقشتها يحتاج إلى بحث مستقل، وحسبي في هذا البحث أنّني طرحت مسائل وتحـــدثتُ عنهـــا بشيءٍ من رؤوس الأقلام عند أبي حيان.

ومن المسائل التي ذكرتها في هذا البحث:

1. مفهوم المصطلحات الدعوية في معاجم اللغة، وعند أبي حيان.
2. مناقشة باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر عند علماء اللغة.
3. النحو الوظيفي، ودورهُ في تفسير القرآن الكريم والسنة النبوية.
4. إبراز احكام الشريعة المتعلقة بالدعوة إلى الله كما وردت في تفسير البحر المحيط.
5. إظهار أصناف المدعوّين كما وردت عند أبي حيان.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث:

- تبين من خلال ما سبق أنّ أبا حيان اعتمد في تفسيره على الأسلوب البياني للقرآن الكريم، إذ إنّه كان يقوم على إيضاح معاني القرآن الكريم وتوضيحه وفق رؤية لغوية تعتمد على إظهار معاني مفردات اللغة العربية، وتحليل النصوص من ناحية نحوية صرفية، وبيان محل بعض الكلمات من الإعراب، ويظهر ذلك عند أبي حيان من خلال سهولة شرحه للآيات القرآنية وبساطتها، حيث كان يقوم على إظهار مناسبة الآيات، وتفسير معاني المفردات، ومن ثم بيان محل بعض المفردات من الإعراب.
- اهتمت كتب التفاسير اللغوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتضح من خلال كلام المفسرين أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين مطلق ومقيد ورجح أبو حيان أنّه مقيد لمن علم المعروف والمنكر، وبينت كتب التفسير اللغوي أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب خيرية هذه الأمة، ثم بين أثر الأخذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثر تركه.
- يصنف تفسير البحر المحيط من كتب التفاسير اللغوية الّذي يعتبر جزءًا من علوم التفاسير التي سلكها أهل العلم في تفسير كتاب الله عزوجل، لذلك نلاحظ أنّ أبا حيان لم يهمل النواحي التفسيرية الأخرى، مثل الحديث عن مناسبة الآيات، الناسخ والمنسوخ والوعد الوعيد.
- اعتمد أبو حيان في تفسير معاني مفردات القرآن على نقل أقوال أهل السلف، ثم يؤيد ما يراه الأقرب للصواب.
- وهذا يدلُّ على أن أهل السلف قد سبقوا علماء اللغة في تفسير معاني مفردات القرآن، لذلك لا بد للباحث في معاني مفردات القرآن أنّ يعمد إلى تفسيرات أهل السلف قبل الاعتماد على تفسيرات اللغويين الّذين جاءوا بعدهم؛ حتى لا توصف الدراسة بالقصور.
- ونلاحظ من خلال تتبع تفسيرات أبي حيان أنه غالباً ما يرجح قول ابن عيطة، أو مجاهد أو ابن عباس.

- والناظر إلى منهج أبي حيان في تفسيره يلاحظ تجنب أبي حيان الخروج في تفسير الآيات إلى مسائل خارجة أو إلى أقوال مرجوحة، لذلك كان يقتصر الحديث عند أقوال المعتزلة والخوارج، ولا يعرج على أقوال الباطنية المرجوحة.
- في المسائل النحوية كان يعتمد أبو حيان على أقوال الزمخشري وابن عطية، ثم يقوم بإطلاق الأحكام على أقوالهما، وعلى الرغم من اعتراف أبي حيان بمكانتهما العلمية، إلا أنه كان يخالفهما الرأي في كثير من المسائل النحوية، ووصف أبو حيان تعليلاً لابن عطية نقله عن المبرد أنّ في قال تعالى ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾[البقرة:31]. حذف لجواب الشرط بالغريب، وعليه فما أراد أنّ يوضحه أنّ قول ابن عطية مرجوح من عنده، وهذا ما لم يقبل به أبو حيان، أو أنّ تعليله لهذه المسألة بعيد عن أقوال النحويين.

المراجع العلمية

القرآن الكريم.

الأصفهاني، أبو القاسم. (2009). المفردات في غريب القرآن (المجلد 4). مكة المكرمة: مكتبة نـــزار مصطفى الباز.

الأنصاري، ابن هشام (2001). شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب (المجلد 1). بيـــروت: دار احياء التراث.

الأنصاري، ابن هشام (بلا تاريخ). قطر الندى وبل الصدى. القاهرة: مكتبة الشعب.

الأنصاري، ابن هشام. (1964). مغني للبيب عن كتب الأعاريـــب (المجلـــد 1). (ســـعيد الأفغـــاني، المحرر) ط مازن مبارك، ومحمد علي.

الأندلسي، أبو حيان (2010). تفسير البحر المحيط (المجلد 1). ت: صدقي محمد جميـــل دمشـــق: دار الفكر للطباعة والنشر.

أمحزون، محمد (1432هـــ). أسس الدعوة إلى الله (المجلد 1). الرياض: مجلة البيان.

ابن الأثير، المبارك بن محمد (1963). النهاية في غريب الحديث ولأثر (المجلد 1). الرياض: دار ابن الجوزي.

الأفغاني، سعيد (1987). في أصول النحو العربي. بيروت: المكتب الإسلامي.

ابن باز، عبد العزي (1420هـــ). مجموعة فتاوي ابن باز. الرياض: دار القاسم للنشر.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. (1993). صـــحيح البخـــاري. ط5، مجلـــد7، دمشـــق: ت: مصطفى ذيب البغا، دار ابن كثير.

البغوي. (1989). معالم التنزيل (المجلد 1). الرياض: دار الطيبة.

باكرمان، علي محمد عبد الرحمن . (ديسمير، 2020). صفات المنافقين التعبدية مـــن خـــلال ســـورة التوبة. مجلة المهرة للعوم الإنسانية، الصفحات 17-52.

البركتي، محمد (2003). معجم التعريفات الفقهية (المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

البيانوني، محمد أبو الفتح (1995). المدخل إلى علم الدعوة (المجلد 3). بيروت: مؤسسة الرسالة.

البيضاوي، عبد الله بن عمر (بلا تاريخ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي. بيروت: دار احياء التراث العربي.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. (1996). الجامع الكبير (سنن الترمذي). ط1، مجلد 6، بيروت: ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (1976). الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (المجلد 1). بيروت: دار الكتاب الجديد.

ابن تيمية، أحمد عبد الحليم (2004). مجموعة فتاوي شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية. الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

الجرجاني. (2011). معجم التعريفات. القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

ابن حبان، أبو حاتم محمد (2012). صحيح ابن حبان. ط1، مجلد 8 بيروت: ت: محمد علي سونمز، دار ابن حزم.

الحلواني، محمد خير (بلا تاريخ). في أصول النحو العربي (المجلد 1). الأطلسي.

الخلف سعود بن عبد العزيز. (1997). دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (المجلد 1). الرياض: اضواء السلف.

الرازي، محمد (1981). تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير، ومفاتيح الغيب) (المجلد 1). دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر.

الزجاج، أبو إسحاق (1988). معاني القرآن وأعرابه (المجلد 1). بيروت: دار إحياء التراث.

الزمخشري، أبو القاسم (2009). الكشاف (المجلد 3). بيروت: دار المعرفة.

زيدان، عبد الكريم (2002). أصول الدعوة (المجلد 9). بيروت: مؤسسة الرسالة.

أبو السعود، العمادي (بلا تاريخ). تفسير أبو السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. بيروت: دار احياء التراث.

السامرائي، فاضل (2021). الجملة العربية تأليفها وأقسامها (المجلد 2). دمشق: دار ابن كثير.

السامرائي، فاضل (2020). معاني النحو (المجلد 2). دمشق: دار ابن كثير.

سيبويه. (بلا تاريخ). الكتاب. بغداد: مكتبة مثنى.

السيوطي. بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة. ت: محمد أبو الفضل. بيروت: المكتبة العصرية.

الشوكاني، محمد (2007). فتح القدير (الجامع بين فن الرواية وفن الدراية) (المجلد 4). بيروت: دار المعرفة.

الطبري، ابن جرير (1994). جامع البيان عن تآويل أي القرآن (المجلد 1). بيروت: مؤسسة بيروت.

الطيار، مساعد بن سليمان (2002). التفسير اللغوي للقرآن الكريم (المجلد 1). الرياض: دار ابن الجوزي.

العلوي، أحمد (2000). أهمية العلم وآداب تحصيله. تاريخ الاسترداد 11 نيسان ، 2024، من دعوة الحق: https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/8672.

ابن عاشور. (2000). التحرير والتنوير. تونس: دار التونسية للنشر.

عبد الحميد، محمد (2009). التحفة السنية في شرح المقدمة الآجرومية. القاهرة: دار الطلائع.

ابن عطية، القاضي أبو محمد (2001). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ت: عبد السلام محمد. (المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن عقيل، بهاء الدين (1994). شرح ابن عقيل على الألفية. بيروت: دار الفكر.

العنزي، عزيز بن فرحان (2005). البصيرة في الدعوة إلى الله (المجلد 1). أبو ظبي: دار الإمام مالك.

غلوش، أحمد (1987). الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها (المجلد 2). القاهرة: دار الكتاب المصري.

ابن فارس. (1979). معجم مقاييس اللغة. دار الفكر للطباعة والنشر.

الفيروز آبادي، مجد الدين. (2005). القاموس المحيط (المجلد 8). بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.

قاسم، سليمان (2000). الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الرياض: دار الوطن للنشر.

القحطاني، سعيد بن علي (2004). الحكمة في الدعوة إلى الله (المجلد 4). الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

القحطاني، سعيد بن علي (بلا تاريخ). العلاقة المثلى بين الدعاة ووسائل الاتصال الحديثة في ضوء الكتاب والسنة (المجلد 1). الرياض: مطبعة السفير.

القرشي، خالد عبد الرحمن (1997). فقه الدعوة في صحيح البخاري (المجلد 1). الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود.

القرطبي، أبو عبد الله (1964). الجامع لأحكام القرآن. ت: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش. القاهرة: دار الكتب العلمية.

ابن القيم. التفسير القيم للإمام ابن القيم. ت: محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن ماجه. (1954). سنن ابن ماجه. مجلد2، بيروت: ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي.

المبرد. المقتضب. ت: محمد عبد الخالق. بيروت: عالم الكتب.

مسلم، أبو الحسن. (1955). صحيح مسلم. مجلد 5. القاهرة: ت: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي.

النووي (1994). المنهاج في شرح صحيح مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي). القاهرة: مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع.

الواحدي، أبو الحسن (2010) التفسير البسيط. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سلسلة رسائل الجامعة 150.

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

ABO HAYYAN AL-ANDALUSI'S LINGUISTIC EFFORTS IN HIGHLIGHTING DAWAH ISSUES THROUGH HIS BOOK OF EXEGESIS TITLED AL-BAHR AL-MOHEET

By
Mustafa Issa Hamdan "Salem Obaid"

Supervisor
Prof. Wael Abu Saleh

This Thesis is submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arabic Language and Literature, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2024

ABO HAYYAN AL-ANDALUSI'S LINGUISTIC EFFORTS IN HIGHLIGHTING DAWAH ISSUES THROUGH HIS BOOK OF EXEGESIS TITLED AL-BAHR AL-MOHEET

By
Mustafa Issa Hamdan "Salem Obaid"
Supervisor
Prof. Wael Abu Saleh

Abstract

This study, titled (Abo Hayyan Al-Andalusi's Linguistic Efforts in Highlighting Dawah Issues through his book of Exegesis titled Al-Bahr Al-Moheet), aims to highlight the linguistic approach followed in interpreting verses of the Qur'an, especially according to Abu Hayyan. It also aims to demonstrate the status of Enjoining Good and forbidding Wrong in the books of Linguistic interpretation, and trying to contribute by examining one of most important doctrines of Islam which is Dawah (the call to God).

The holy Qur'an pays attention to Dawah in many verses in terms of mentioning the rules, guidelines, and characteristics related to the person practicing Dawah (Da'iyah), the different approaches to Dawah, and the types of people targeted by Dawah from a linguistic interpretive perspective.

Thes study was conducted through the descriptive analytical approach by analyzing Qur'anic verses, contemplating and discussing them, and extracting rulings from them.

The results of this study were as follows: Aby Hayyan relied on the bayan (rhetoric) approach in the exegesis of the holy Qur'an, as he would rely on clarifying meanings of The Holy Qur'an according to a linguistic and grammatical vision. Abo Hayyan was concerned in more than one section with the doctrine of enjoining good and forbidding wrong, and he proposed that those with sufficient knowledge of good and wrong are the ones entitled to practice it, and he also highlighted the impact of adopting this doctrine or abandoning it.

Keywords: the efforts of Abu Hayyan Al- Andalusia, linguistic interpretation, Dawah issues.